



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة عمار تليجي - الأغواط



كلية: الآداب واللغات
قسم: اللغة والأدب العربي

مذكرة ماستر

تقديم الطالبة: يمينة رويشد

ميدان: اللغة والأدب العربي
شعبة: الدراسات الأدبية
تخصص: أدب عربي قديم

المدائح النبوية (الشعرية والنثرية) عند لسان الدين بن الخطيب

أعضاء اللجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الصفة
سعد بولنوار	أستاذ التعليم العالي	رئيسا
أبو بكر مرزوق	أستاذ محاضر (أ)	مشرفا ومقررا
علي الأخذاري	أستاذ محاضر (ب)	مناقشا

السنة الجامعية: 2018 / 2019

كلمة شكر

أحمد الله وأشكره على نعمة العقل التي أنعم بها عليّ، ووجهني بها إلى المسلك الصحيح، فما من علم أدركه، إلاّ وقربني منه، فله المنّة، وله الفضل. وبعد:

أتوجّه بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف، الدكتور (أبو بكر مرزوق)، الذي ساعدني كثيرا لإتمام هذا العمل، فلم يبخل عليّ بمعلوماته، وتوجيهاته، ونصائحه، ووقوفه إلى جانبي من بداية رحلتي البحثية إلى نهايتها.

كما لا يفوتني أنّ أتوجّه بالشكر إلى جميع أساتذة قسم اللغة، والأدب العربي على جهوداتهم طوال رحلتي الدراسية الجامعية، دون أن أنسى موظفي القسم: إدارة وعمالا.

يمينة رويشد

إهداء

أهدي ثمرة جهدي الى مدرستي الأولى في
الحياة

أمي الغالية وقرّة عيني الحبيبة

أدامها الله فوق رؤوسنا

إلى سر نجاحي الذي دفعني الى طريق العلم
ولم يبخل عليا بشيء

أبي الغالي حفظه الرحمن وجعله فخرا وذكرا
لي

إلى إخوتي حفظهم الله ورعاهم

يمينّة

مقدمة

تعدّ المدائح النبوية من الفنون التي حفل بها الأدب العربي؛ حيث وجد طريقه، وطريقته في البيئات الصوفية؛ ولم ينهض به قبلهم - من غير المتصوفة - إلا شعراء معدودون، من أمثال شعراء الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو مع شعراء العصر الأموي في صراعاتهم السياسية والمذهبية والسياسية، أمثال "الفرزدق"، و"الكميت"، و"دعبل الخزاعي"، و"الشريف الرضي"، و"مهيار الديلمي" أو ما يحسبون عن آل البيت.

ومع حلول القرن السابع الهجري، يظهر فن المديح النبوي الحقيقي مع الشاعر "البوصيري"، صاحب "البردة" و"الهمزية"، حيث كانت مدائحه نموذجاً احتذاه المشاركة والمغاربة، وطوروه، وذهبوا به بعيداً في مجال الصناعة البديعية، حتى كادت صناعتهم تختلط بعلم البلاغة، بل يأخذ المديح النبوي اتجاهين واضحين: اتجاهها صناعياً مثلته "البديعيات"، واتجاهها فناً خالصاً مثلته المولديات، حيث احتفى فيه الشعراء بالمولد النبوي. وقد ازدهر هذا النوع مع الأندلسيين عصر بني الأحمر، وعند المغاربة، مع الموحدين ثم المرينيين.

إشكالية البحث :

ولعل مقارنة المدائح النبوية، ومن ضمنها (المولديات)، في أدب لسان الدين بن الخطيب، ورصد خصائصها الفنية عنده - نثراً وشعراً - هو مناط دراستنا، ذلك أن هذه الشخصية مثلت حيزين جغرافيين، هما الأندلس، بحكم أنه غرناطي، عاصر ملوك بني الأحمر، وحيز المغرب، بحكم أنه رحل إلى ملك بني مرين بفاس، ومن خلال هذين الحيزين، ستتلور إشكالية البحث في المدائح النبوية، وفي المولديات، وسوف يفتح السؤال على مدى تأثير هذين الحيزين، في بعدهما التاريخي، وما ينعكس عنهما من ظروف سياسية واجتماعية وفكرية، وأدبية تطاول هذا الغرض الفني الديني، وكيف ينعكس فناً عند الشاعر ابن الخطيب.

أسباب اختيار الموضوع :

ولا بد، عند اختيار موضوع هكذا الموضوع الذي اخترناه، أن تكون له أسبابه ودوافعه، وهي، في حقيقتها، أسباب موضوعية ترتبط بطبيعة الإشكالية المطروحة في البحث؛ أي: بخصائص المديح النبوي عند أدباء الغرب الإسلامي، وخصوصيته عند لسان الدين بن الخطيب، خاصة ما ارتبط بما كتبه نثرا، ونقصد بها رسائله الحجازية.

أهداف البحث:

وعلى أساس هذه الأسباب التي ألقينا إليها، تكون أهداف البحث، التي لا تكاد تحيد عن المحاور الآتية:

- تميّز الأدب الديني في العصور الأدبية العربية المتأخرة مع ظهور المدائح النبوية في عصر الضعف في المشرق والمغرب
- تبلور هذا الفن عند الأندلسيين والمغاربة، لظروف تاريخية ودينية ارتبطت بالصراع المسيحي الإسلامي في الأندلس.
- خصوصية أدب المديح الديني عند ابن الخطيب شعرا ونثرا.

خطة البحث:

وللقبض على هذه المحاور، اقتضى البحث أن نسير على طريقة واضحة العناصر، منطقيّة التسلسل، تتحكم فيها خطة بحث تتأسس على: مدخل وفصلين، وخاتمة.

المدخل: يتناول الأدب الديني في تراثنا العربي (تعريفا، وأنواعا، وخصائص)

الفصل الأول:

تناول الشعر الديني عبر مبحثين:

الأول: الشعر الديني في عصر لسان الدين بن الخطيب

الثاني: الشعر الديني عند ابن الخطيب

الفصل الثاني:

يتناول المديح النبوي وخصائصه عند ابن الخطيب، عبر مبحثين أيضا:

الأول: المدائح النبوية الشعرية،

الثاني: المدائح النبوية النثرية

الخاتمة:

حاولت الخاتمة أن تستجمع ما توصلت إليه هذه المتابعة الأدبية، وأن تقف عند بعض الاستنتاجات.

منهج البحث:

ولا تمثل هذه المقاربة منهجا قرائيا خاصا؛ لطبيعة المادة المعرفية التي تعومل معها معاملة توثيقية إحصائية، كانت الغاية منها:

- التأريخ للمدائح النبوية
- وصف مظاهر التطور فيها،
- بيان الخصائص الأسلوبية لأنواعها، ونقصد بها (المديح النبوي - المولديات - الرسائل الحجازية).

فإذا كان لا بد من اعتماد منهج قرائي بعينه، سنأخذ من المنهج التاريخي شروط ترتيب المادة الشعرية زمنيا، ونأخذ من المنهج الوصفي دلالاته اللغوية، من حيث عرض خصائص هذا الشعر الديني، أو اعتماد بعض الإحصاء، دون إلزام أنفسنا تطبيق مقولات المنهج الأسلوبي بحذافيرهما،

وقبل أن نخرج من هذا التقديم، يجدر بنا أن نشير إلى أمرين مهمين في مسار البحث:

الأمر الأول:

أنّ وظيفتنا، في هذا البحث، قد اقتصرت على استعراض المادة الأدبية (الشعرية والنثرية)، التي ارتبطت - معظمها - بما عبر عن مشاعر الشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة (البيت الحرام، والمسجد النبوي، حيث المقام الشريف، مضاف إليه: ذلك الشعر الذي يرتبط بمناسبة المولد النبوي، وصور الاحتفال به. ويبقى العنصر الجديد في البحث، هو تناول المدائح الدينية الثرية، سواء أكان رسائل حجازية، أم قصص المولد، وقد اكتفينا باستعراض جانب المضمون فقط.

الأمر الثاني:

يرتبط بدور الأستاذ المشرف، الذي كان طرفاً مشاركاً في البحث، وقد قام بعملية تحوير كبيرة للمادة البحثية، أخرجته في شكل جديد. وأغتنم الفرصة لتقديم خالص الشكر للدكتور (أبو بكر مرزوق) على كل ما بذله من توجيه ومشاركة في البحث، سائلين الله أن يمتعه بالصحة والعافية، ويجعل عمله في ميزان حسناته. آمين

مدخل: الشعر الديني

في الأدب العربي

مدخل : الشعر الديني في الأدب العربي

مدخل: الشعر الديني في الأدب العربي

1- تمهيد:

كانت التّرعّات الدينية عند الإنسان من أهمّ البواعث التي أسهمت في نشأة الشعر الديني، وانتشاره. فلو بحثنا في تاريخنا الأدبي، لوجدنا أن الدين قد صبغ الشعر بصبغة دينية، وهيمن عليه من ناحية الأغراض، بل غير مفاهيمه، ليجعله غرضاً قائماً بذاته.

ومن هنا، كان لا بدّ من الإشارة إلى المناخ السائد في العصور الأدبية العربية حتى ندرك هذا التطور، ونتعرّف إلى العوامل التي ساعدت في تبلوره، حتى وصل إلى هذه الصور المتحدّدة التي نشهدها اليوم في موضوعة الدين، وتعاطي الشعر معها عبر عصور أدبنا العربي.

فحياة العرب في الجاهلية قاسية، عمادها العصبية القبلية، يطلق فيها العنان للأهواء والشهوات والغرائز، وتغرق في بحر من الفوضى والحروب والصراعات التي يشهد عليها أدبهم، ويسجّل لهم شعرهم، والشعر ديوان العرب، كما يقول عنه ابن خلدون في مقدمته، " .. فيه علومهم، وأخبارهم، وحكمهم.."¹. وظلّ حالهم كذلك حتى جاء النبي ((عليه الصلاة والسلام))، حاملاً معه القيم الإنسانية الجديدة من: توحيد وعبادة ورجوع إلى الله ومجاهدة للنفس وتمسّك بالفضائل.

ولقد أثر الإسلام تأثيراً بالغاً في الحياة الأدبية، وكان له موقف من الشعر؛ فهو لم يرفضه أو يمنع، وإنما هدّبه وصبغه بصبغة أخلاقية، من ناحية المعاني والأفكار والقيم، بل ومن ناحية اللغة والأسلوب والتعبير، محدّداً معايير فنية مستمدّة من الدين الحنيف، ومن قيمه الخالدة، يسير عليها الشعراء في شعرهم، محولاً مجرى أغراضهم عن الفخر الهائج، والمدح الزائف، والهجاء المقذع، والغزل الفاحش، والوصف المرذول، والاعتقاد الديني الوثني الفاسد.

كان للقرآن الكريم موقف من هذه الفنون المنحرفة، والأغراض المرذولة، حيث حبّب إلى الشعراء كلّ ما يخدم المروءة، وقيم الأخلاق، وازدرى كلّ انحراف في الشعر أو الشعراء، بقوله

¹ - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار ابن الجوزي للطبع والنشر، القاهرة، ط.1، 2009، ص: 530.

مدخل : الشعر الديني في الأدب العربي

تعالى: ((وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ {الشعراء/224} أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ {الشعراء/225} وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ {الشعراء/226} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ {الشعراء/227})).

فلم يكفّ الإسلام الشعراء عن قول الشعر، ما داموا ملتزمين بما يطابق روح القرآن، كالموعظة، والإرشاد، ومدح الرسول وأصحابه¹.

ومع تشرب الشعراء المسلمين مبادئ الدين، شقّ الشعر طريقه، ليتجلى الحس الديني، وتظهر المسحة الدينية على أشعارهم، حين عبّروا بالشعر عن قيم الدين الجديد، وما تحمله من مكارم الأخلاق، وحب لله ولرسوله، وسرت الروح الإسلامية بدل الروح القبلية، وانعكس هذا على الشعراء، فتحوّل الشاعر من شاعر مفتخرٍ بالنسب والحسب، وهجاء مشعلٍ لفتيل الحرب إلى شاعر يفخر بالانتساب إلى الإسلام، ونشر مبادئ الحق، والدعوة إلى الإسلام، والالتزام برسالته الإنسانية².

ومن هنا، بدأت معالم القصيدة الدينية تتشكل، في مضامينها وأساليبها، وتحدد مقاصد الشعر الديني الذي يشيد بالرسالة المحمدية، وينتصر لدعوة الرسول ((صلى الله عليه وسلم))، ويكبر الخلق الرفيع، والبطولة الخارقة، ويشر بالدين الجديد؛ فيمدح مزاياه، ويمهد الطريق للشعراء الإسلاميين على مدى القرون اللاحقة في امتداح الإسلام، والثناء على النبي الكريم³.

2- الشعر الديني:

نقصد بالشعر الديني، ذلك الشعر الذي تراوح بين: شعر زهد ووعظ، وشعر تصوّف، وشعر مديح نبوي، وهذه الأنواع الثلاثة مرتبط بعضها ببعض.

¹ - أحمد الهاشمي: جواهر الأدب، دار مكتبة المعارف، بيروت (2004)، 1: 120.

² - ينظر: عبد الرحمن خليل إبراهيم: دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول (ص)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1، 1971، ص: ص: 71.

³ - ينظر: سامي الدهان: المديح، دار المعارف، القاهرة، ط.2، 1968، ص: 07.

مدخل : الشعر الديني في الأدب العربي

2-1- الشعر الزهدي:

أول من زهد في الحياة هم الصحابة، وقد فعلوا ذلك عملاً بما جاء في الأثر: "أزهد في الدنيا، يحبك الله، وأزهد فيما عند الناس، يحبك الناس"، فكان محتماً على بعض الشعراء، بعد انتشار الإسلام واتساع رقعته، أن تظهر الفروق المادية، وتصطرع العلاقات الاجتماعية بين الطبقات، فيلجأ فريق من الناس إلى الزهد، كردة فعل تُجاه فريق قد أسرقتهم حضارة المجتمع الإسلامي الجديد، خاصة مجتمع العصر العباسي، أو كان موقفاً من شعراء انغمسوا في ملذات الدنيا، فتراهم يجسدون في شعرهم صوراً تعبر عن رجوعهم عما اقترفوه من آثام، وندم على ما ارتكبوه من معاص¹.

وربما كان الشاعر (أبو العتاهية) أول من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهد في الدنيا، والنهي عن الاغترار بها، وكان ذلك من جانبه كردة فعل لما أخذ يشيع بين أدباء وشعراء عصره من التهلك والمجون والزندقة ومن أشعاره²:

حانك الطرفُ الطموحُ أيها القلبُ الجموحُ
لدواعي الخيرِ والشَّوْ رر دُنُوْ

ومنه أيضاً:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكه
والحديث عن الزهد يستدعي الحديث عن التصوف لأنهما متلازمان في غالب الأحوال، والفرق بينهما هو الفرق بين الاعتدال والمبالغة.

2-2- الشعر الصوفي:

نوع من الشعر يكون إلهياً محضاً، تستخدم فيه المادة الشعرية للرمز عن الحقائق، وهو شعر مؤول لا يقصد ظاهره، وإنما له محامل يحمل عليها، تليق به، وهو مميّز بسمو الروح، وبعد الخيال،

¹ - ينظر: محمد عباسة: نشأة الشعر الديني عند العرب، مجلة حوليات التراث، ع.1، جامعة مستغانم، الجزائر، 2004، ص: 10.

² - أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت (1986)، ص: 116.

مدخل : الشعر الديني في الأدب العربي

وغموض المعاني الرمزية¹. ولعلّ من أشهر شعراء هذا النمط: السهروردي، وابن الفارض، وابن عربي.

ومّا يروي في التصوّف ما قاله (محي الدين بن عربي)²:

بين التذلل والتدلل نقطة فيها يتيه العالم التحرير
هي نقطة الأكوان إن جاوزتها كنت الحكيم وعلمك الإكسير

حيث كان الشعراء المتصوفة ينشدون حب الإله ويمزجونه بالحبيب ويتغنون في عشقه تقريباً منه، ويدخلون الفلسفة والعقل والتصوير في شعرهم، فيخرج من حدود الدين الخالص إلى فن التصوف³.

2-3- المديح الديني:

عندما ظهر الإسلام ببلاد الحجاز، لم يرض عرب مكة بالرسالة المحمدية، فحاربوا الرسول بالسلاح كما حاربوه بالقول. وللدرد عليهم، انتدب الرسول ثلاثة من الشعراء للدفاع عن الرسالة المحمدية، وهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن وراحة. لكن شعر هؤلاء لم يتوقف عند الدفاع عن الرسالة المحمدية، وإنما أصبحوا ينظمون قصائد يمدحون فيها الرسول الكريم، ذاكرين صفاته، وأخلاقه، ومعجزاته⁴.

وينقسم المديح إلى:

¹ - عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ص 226.

² - محي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت (د.ت)، 4: 556.

³ - سامي الدهان: المديح، ص: 70.

⁴ - محمد عباسة، نشأة الشعر الديني عند العرب، مجلة حوليات التراث، العدد الأول، جامعة مستغانم، الجزائر، 2004.

مدخل : الشعر الديني في الأدب العربي

2-3-1- مديح الله جل جلاله:

ويتمحور في الإشارة إلى خلق الله للوجود وما أنعم به على البشر، التي قامت الأديان كلها بشكره ومديحه، وبيان أياديه ونعمه. وفي القرآن الكريم كثير من الآيات التي ألهمت الشعراء على النسيج على منوالها، أو الاقتباس منها. ومن أمثلة ذلك، (حسان بن ثابت)، الذي يقول¹:

وَأَنْتَ إِلَهَ الْخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي بِذَلِكَ مَا عَمَرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهًا، أَنْتَ أَعْلَى وَأَمْجَدُ
لَكَ الْخَلْقُ وَالنِّعْمَاءُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ فَيَاكَ نَسْتَهْدِي، وَيَاكَ نَعْبُدُ

وقد كان كثير من الشعراء في هذا المديح الديني يكبرون جمال وكمال الخالق كما فعل أبو نواس، وابن الرومي، وأبو فراس، وقد تطور هذا المديح حتى أصبح قريباً إلى النسب².

2-3-2- مديح النبي (صلى الله عليه وسلم):

يعرف المديح النبوي بأنه ذلك الشعر الذي ينصب على مدح الرسول ((صلى الله عليه وسلم))، بتعداد صفاته الخلقية والخلقية، وإظهار الشوق لرؤيته، وزيارة قبره، والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية، والإشادة بسيرته، وغزواته، والحديث عن مواقفه وشمائله، تقديرًا وتعظيمًا³.

والمديح - وفق هذا الاعتبار - على نوعين: مدح خالص، قيل في حياة الرسول، ورثاء خالص قيل بعد وفاته، غير أن الرثاء قد يعامل معاملة المدح؛ ذلك أن الرسول الكريم لم يميت في قلوبنا، بل لا يزال حيا ما دامت العقيدة الإسلامية فينا، لذلك نجد شعراء المديح يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء. وأول ما ظهر من نصوص المديح النبوي ما قاله عمّه: (العباس بن عبد المطلب)، إبان ولادته، إذ شبه ولادته بالنور، والاشراق الوهاج الذي أنار الكون، فيقول⁴:

¹ - حسان بن ثابت: ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الكتب العلمية، ط.2، بيروت، 1994، ص: 54.

² - سامي الدهان: المديح، ص: 69.

³ - جميل حمدوي: شعر المديح النبوي في الأدب العربي، مجلة ديوان العرب، ع.94، 2001.

⁴ - ينظر: عباس جراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ط.2، 1982، ص: 142.

مدخل : الشعر الديني في الأدب العربي

أنت، لما ولدت، أشرقَتِ الأُرُضُ، وضاءتْ بنورِكَ الأفقُ
نحن في ذلك الضياءِ وفي النورِ، وسُبلُ الرشادِ نَحترقُ

وكذلك ما نسب إلى عمه (أبي طالب)، قوله:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمالَ اليتامى، عصمةٌ للأرامل
فمن مثله في الناس أو من مؤمل إذا قاسه الحكام عند التفاضل

ومن الشعراء المخضرمين، الذين آمنوا بالرسول الكريم، ومدحوه، وأشادوا برسالته (الأعشى)، الذي نظم "داليتَه" المشهورة، حيث يقول¹:

نبيُّ يَرى ما لا ترون، وذكرُهُ أغارَ - لعمري - في البلاد وأنجَدَ
له صدقاتٌ ما تغبّ، ونائلٌ وليس عطاءُ اليوم مانعُه غدا
أجدِّك، لم تسمعَ وُصاةَ محمدٍ نبيِّ الإله، حين أوصى وأشهدَ

ولعل أشهر قصيدة نظمت في مدح الرسول في ذلك الوقت هي قصيدة (كعب بن زهير)، التي مطلعها²:

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ مُتيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولُ
أنبتُ أن رسولَ الله أوعدي والعفوُ عندَ رسولِ الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةً قرآنٍ فيها مَواعيظٌ وتفصيلُ
إنَّ الرسولَ لنورٌ يستضاءُ به مُهنَّدٌ من سُيوفِ الله مسلولُ

وللشاعر (حسان بن ثابت) شعر في مدح الرسول ((صلى الله عليه وسلم))، استحقَّ معه لقب "شاعر الرسول"، وذلك لكثرة ما قاله في مدحه، والدفاع عنه، ولعل أشهرها "الهمزية"، التي يقول فيها³:

وقالَ اللهُ : قدْ أرسلتُ يقولُ الحقُّ إنْ نفعَ البلاءِ

¹ - ميمون بن قيس الأعشى: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980، ص: 46

² - كعب بن زهير: الديوان، تح علي فاغور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ص: 60

³ - حسان بن ثابت: الديوان، ص: 20.

مدخل : الشعر الديني في الأدب العربي

شهدتُ به، فقوموا فقلتُمْ : لا نقومُ ولا نشاءُ

ولحسان مرثي في رسول الله، أشهرها "داليتة"، التي تعدّ من أكثر القصائد تأثيرا في نفوس المسلمين ومطلعها¹:

ما بال عَيني لا تَنامُ كأنَّما كُجِلتْ مآقيها بِكُحلٍ
جزعا على المَهديِّ أصبحَ ثاويًا يا خَيرَ مَنْ وَطِئَ الحَصى لا تَبُعدِ

إلى أن يقول في آخر القصيدة:

وَاللَّهِ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ أَنْصارَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مَشْهَدِ
صَلَّى الإِلَهَ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارِكِ أَحْمَدِ

2-3-3- مديح آل البيت (رضي الله عنهم):

وفي عهد بني أمية اختلط المديح بالتيارات السياسية، وكان مصدره شعراء تشيعوا إلى آل البيت أو نقموا على الحكام بني أمية.

وإذا كان شعراء عصر النبوة قد امتدحوا الرسول لصفاته ونبوته، فقد امتدح شعراء بني أمية آل بيته لمقامهم ورفعتهم متّخذين منه وسيلة للتقرّب من آل البيت، ووسيلة سياسية للمطالبة بالخلافة والحكم، والدعوة إلى الثأر والانتقام من قتلة الحسين، والتنديد بالظلم².

استطاع شعراء آل البيت أن يبلوروا هذا النوع من المديح، في خضم الصراع الشيعي، حين استمدوا من حادثة استشهاد "الحسين بن علي"، ومن توالي المصائب والفواجع على آل البيت نفسا شعريا يتسامع به الناس عند إحياء ذكرى "يوم عاشوراء"، ومن أبرز أعلامه هذا النوع الفرزدق، والكميت بن زيد، دعبل الخزاعي، والشريف الرضي.

¹ - حسان بن ثابت: الديوان، ص: 65.

² - ينظر: سامي الدهان: المديح، ص: 84.

مدخل : الشعر الديني في الأدب العربي

وها هو الفرزدق في مطلع قصيدته، التي يمدح فيها "زين العابدين بن الحسين بن علي"، فيقول¹.

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأْتَهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ التَّقِيَّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ

في العصر العباسي، يقترب المديح النبوي من الزهد نتيجة اختلاط العرب مع غيرهم من الأعاجم، وانفتاحهم على ثقافات الآخر، وكان للمجتمع العباسي المترف، وما عكسه من انحلال أخلاقي أثره الفاعل في قيام تيار مناقض لتيار اللهو والمجون، وجد ضالته في الزهد، وكان من أوائل من طرق هذا الباب (أبو العتاهية)، وسرعان ما أدى الزهد إلى ظهور التصوف، ليرتبط المديح النبوي بالشعر الصوفي، مع (رابعة العدوية)، و(عمر بن الفارض)، وغيرهما من شعراء هذا الاتجاه.

ولقد استمدت المدائح النبوية بعض أفكارها من التصوف، بل أسهم المتصوفة في صناعة هذا الفن النبوي، حيث تبلورت شخصية الرسول الأعظم، وفق منظور الصوفية له، ونالت حظها في كنفها. فإذا سمعنا إلى ما يقوله ابن عربي عن الرسول الأكرم، أدركنا تلك الإضافة الكبيرة التي أضافها التصوف للمديح النبوي²:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَ أَحْمَدًا وَنَادَى بِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْمَدَى
تَلَقَّاهُ بِالْقُرْآنِ وَحَيًّا مَنْزِلًا فَكَانَ لَهُ رُوحًا كَرِيمًا مُؤَيِّدًا
وَأَعْطَاهُ مَا أَبْقَى عَلَيْهِ مَهَابَةً فَأُورِثُهُ عِلْمًا وَحِلْمًا وَسُؤْدَدًا
وَأَعْلَى بِهِ الدِّينَ الْحَنْفِيَّ وَالْمَهْدَى وَصِيرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيِّدًا

وهكذا ".. ظلَّ شعر المدح والثناء الذي قيل في الرسول (صلى الله عليه وسلم) يظهر ها هنا وهناك مع بعض شعراء الشيعة إلى إن وصل القرن السادس للهجرة، مع ازدهار شعر الزهد، وظهور الحركات الدينية وطرقها الصوفية، حيث يغدو المديح النبوي غرضًا مستقلًا بنفسه، له

¹ - همام بن غالب الفرزدق: الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1987، ص: 511.

² - محي الدين بن عربي: ديوان الشيخ الأكبر، مراجعة: محمد قحّة، دار الشرق العربي، بيروت (د.ت)، ص: 96.

مدخل : الشعر الديني في الأدب العربي

شعراؤها، وله أطره الفكرية والفنية.. بل قد نجد شعراء نذروا أنفسهم، ووجهوا شعرهم لهذا الغرض أمثال الشاعر (جمال الدين يحيى بن يوسف الصرصري [ت. 656هـ])، وشاعر المتصوفة (عمر بن الفارض [ت. 632هـ])، إلى أن يظهر (محمد بن سعيد بن حماد البوصيري الصنهاجي [ت. 698هـ]). بثلاثيته الشعرية: (اللامية - الهمزية - الميمية)، الشهيرة بالبردة، التي كان لها الأثر الكبير في تطوير شعر المديح النبوي... إلى أن يظهر شكل شعري جديد انبثق عن معارضات الشعراء لبردة البوصيري عرف بالبديعيات..¹.

ولقد امتدّ هذا الاحتفاء بقصائد المولد النبوي إلى البلاد الأندلسية، حيث كان يحتفل بهذه الذكرى، فيجلس السلطان الأندلسي في أيام المولد ولياليه، يجتمع حوله رجال الدولة، وعلية القوم والشعراء والمنشدين في مقدمتهم، الذين أعدّوا قصائدهم المولدية لإلقائها في هذه المناسبة، ونيل جوائزها². ثم تسمي المدائح النبوية من خلال هذه الاحتفاليات الكبيرة من أهم أغراض الشعر الأندلسي، والشعر المغربي، حيث "كان الاحتفال بالمولد النبوي الكريم عند المغاربة مبكراً، على غرار الفاطميين في مصر، والمشرق العربي، يمتدّ إلى عهد الدولة الموحدية، منتصف القرن السابع الهجري، إذ تذكر كتب تاريخ بلدان المغرب أنّ أبا العباس أحمد بن محمد العزفي (ت. 639هـ)، وضع كتابه "الدرّ المنظّم في مولد النبيّ المعظّم"، وأكمله ولده أبو القاسم (ت. 677هـ)، وذلك في عهد الخليفة الموحد (المرتضى)..³.

ولعل من أبرز الشعراء الأندلسيين الذين احتل المديح النبوي مساحة من دواوينهم: ابن زمرك، وابن جيان، وابن بزّي الكلبي، وابن جابر الأندلسي، وشاعرنا لسان الدين ابن الخطيب.

¹ - أبو بكر مرزوق: مولد الشيخ محمد بن عزوز، ص: 16، 17.

² - نبيل خالد الخطيب: لسان الدين بن الخطيب، دار النهضة العربية، بيروت، ط. 1، 1983، ص: 20.

³ - أبو بكر مرزوق: مولد الشيخ محمد بن عزوز، ص: 21.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن

الخطيب

المبحث الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

المبحث الثاني: الشعر الديني عند ابن الخطيب

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

المبحث الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

أولاً: الأدب الديني في عهد (بني الأحمر) في بلاد الأندلس

ثانياً: الشعر الديني في عهد (بني مرين) في بلاد المغرب

1- تمهيد:

عاش لسان الدين بن الخطيب في القرن الثامن الهجري، في الفترة ما بين: [713هـ / 1313م - 776هـ / 1375م]، وعاصر دولتين عظيمتين:

- دولة بني نصر (بني الأحمر) بالأندلس، وكانت العاصمة غرناطة (آخر قلاع الإسلام في إسبانيا)، وامتدت ما بين: [1232م-1492م]،
- دولة بني مرين بالمغرب، وعاصمتهم (فاس)، وامتدت ما بين: [1244م-1465م].

لقد كان العصر الذي شهده ابن الخطيب (713هـ - 776هـ) بشقيه: الأندلسي والمغربي عصر اضطراب سياسي، سواء:

على مستوى الخارج: حيث بدأ القشتاليون المسيحيون يسترجعون أراضيهم الإسبانية ويستقطن الممالك الإسلامية مملكة مملكة فلم يبق إلا آخر ممالكهم مملكة بني الأحمر والعاصمة غرناطة التي بدأ يضيق عليها الخناق.

من الجهة المقابلة، كانت الممالك المغربية منذ الموحدين، وانتهاء بالمرينيين في المغرب الأقصى، تنظر إلى تطورات الوضع السياسية بعين القلق، وتعلن الأندلس أرض جهاد ومرابطة.

على مستوى الداخل: حيث صراع الأمراء على السلطة، واستقوائهم بالأعداء المسيحيين على العرش، إلى جانب مؤامرات أبناء الأسرة الحاكمة، الذين كثرت عندهم الثورات، واستفحلت الاغتيالات، والتصفيات.

لكن هذه الأحداث العصبية من عمر آخر مملكة إسلامية في الأندلس (مملكة غرناطة) لم تمنع من ظهور انتعاش اقتصادي وازدهار اجتماعي، بعدما تجمّع فيها كل من فرّ من مجازر الزحف

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

المسيحي، فاختار دولة بني الأحمر الملاذ الوحيد في الأندلس، فإذا بهذه الأسباب الاقتصادية والاجتماعية تنعكس على الحياة الفكرية والأدبية في العصر، لتغدو ظاهرة إيجابية. ثم تتجلى ظاهرة أخرى اقتضتها المشاعر الدينية التي صنعتها التطورات السياسية في الأندلس والمغرب نتيجة الصراع العقيدي (الإسلامي المسيحي)، وهي ظاهرة العودة إلى الدين وتعاليمه، والامتثال للشريعة وتطبيقها، وقد انقاد الحكام إلى هذه الروح الدينية عن رغبة أو رهبة، لكسب ودّ الرعية التي يعول عليها في الدفاع عن الدين والدولة، ولسلطة الفقهاء وتأثيرهم على الجميع. ومن صور هذه الظاهرة الدينية المهيمنة، انتشار الطرق الصوفية، وانتشار الزوايا، ورواج أفكارهم التي تشعبت بين الاعتدال والتطرف، والصفاء الروحي والبدع والخرافة، وفي هذه الأجواء، تجد السيرة النبوية مناخا خصبا للرواج والانتشار، فيحتفى بالمولد النبوي الشريف، ليصبح احتفالية موسمية كبرى، لها مراسيمها المادية والروحية والأدبية¹. وعبر هذا الامتداد الزمني (الأندلسي / المغربي)، يمكننا أن نتبع ظاهرة الشعر الديني، ونتعرف على أهم أدبائه، بالأندلس والمغرب، حتى نتبين موقع أدب ابن الخطيب في هذه الحيز التاريخي، وما يمكن أن يقدمه هذا اللون الجغرافي في فنه.

2- الأدب الديني في عهد (بني الأحمر) في بلاد الأندلس

لبلاد الأندلس وضع خاص في ما ارتبط بالحياة الدينية، ومن الطبيعي أن يتجلى التدين، والعناية بشعائر الدين، بصورة واضحة في بلد شغلته حروب الفتح، في بداياتها الأولى²، ثم الصراع الديني بين المسلمين والمسيحيين، خاصة مع عصر الدويلات وملوك الطوائف، وما يتخللها من هدوء فترات تعايش ديني حذر.

كان لهذا الوضع السياسي أثره البالغ في توقد الشعور الديني، وانعكاسه على الحياة الفكرية والأدبية، وفي نماء الكتابة، والتأليف في ذلك، سواء تعلق الأمر بالأدب الحماسي ذي النبرة الدينية، أو ما ارتبط بأنواع الشعر الديني، كشعر الزهد، وشعر التصوّف، والشعر النبوي.

¹ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تح: محمد الكناي، دار الثقافة، بيروت، ط.1، 1870، ص: 10 - 15.

² - ينظر: محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، دار النشر المؤسسة الرسالة، بيروت، ط.2، 1993، ص: 21-22.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

في ما يرتبط بالشعر النبوي، كان من الطبيعي أن يتغنى شعراء الأندلس بمدائح الرسول ((صلى الله عليه وسلم))، مثلهم مثل شعراء المغرب والمشرق، لكن مع شيء من الشوق، والاسترسال في الحب والتعلق، نتيجة البعد الجغرافي، عن بلاد الحجاز، حيث الكعبة المشرفة، والمدينة المنورة، وقبر رسول الكريم. يضاف إلى ذلك ما طبعت مناسبة المولد من احتفالية ومهرجانية، إذ دأب الأندلسيون والمغاربة على استقبال ذكرى المولد النبوي بإقامة المآدب العامة وبقراءة السير النبوية على الناس، والتصديق وإظهار السرور، وإنشاد القصائد في مدحه، وتعداد خصاله، وطلب شفاعته.

لقد كان الاحتفال بالمولد النبوي في عهد (بني الأحمر) له نكهته الخاصة، حيث كان امتداداً للشعر المغربي في عصر الموحدين، الذين كانت عنايتهم بالمولد لا تقل عن عنايتهم بالعلوم الإسلامية الأخرى، أين يزدحم في بلاطهم الشعراء حتى إن كتب التراجم في القرنين السابع، والثامن، قد حفلت بأسماء العديد منهم.

أصبحت "المولديات" تقليدا روحيا في "غرناطة"؛ يحتفل به احتفالا رسميا كل عام، تلقى فيه المدائح النبوية، وبمدح الشعراء من خلاله السلطان الحاكم الذي ألقيت في بلاطه القصيدة. ولقد شجع ملوك بني الأحمر شعراء الموالد وقربوهم إليهم، وعمت البلاد نهضة أدبية واسعة نبغت فيها أسماء ارتبط شعرهم بالمديح النبوي، من أمثال: لسان الدين ابن الخطيب، وتلميذه ابن زمرك، وابن جيان، وابن جزى الكلبي، وابن جابر الأندلسي وغيرهم..

2-1- نماذج من الأدب الديني الأندلسي

ابن جيان:

ولقد كان عبد الله بن الجيَّان من فقهاء الأندلس ومن خطبائها، وأدبائها البارعين، وله قصائد ورسائل موجهة لأعتاب الحضرة النبوية. قال من خمسة له¹:

¹ - أحمد المقرئ: نفع الطيب في غصن الأندلس، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، 7: 437.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

الله زاد محمداً تكريماً وحباه فضلاً من لـدنه عظيماً
واختصه في المرسلين كريماً ذا رأفة بالمؤمنين رحيماً
صلوا عليه وسلموا تسليماً

إنَّ الرسولَ المعتليَّ المقدار لمؤيد من ربه القهار
بالمعجزات جلت عمى الأبصار وشفّت من أدواء الضلال سقيماً
صلوا عليه وسلموا تسليماً

ومن قصائد بن الجيان غير هذه الخمسة قصيدة مستقلة بنفسها قول فيها¹:

صلوا على خير البرية خيماً وأجل من حاز الفخار صميماً
صلوا على من شرفت بوجوده أرجاء مكة زمزما وحيطياً
صلوا على أعلى قریش منزلاً بذراه خيمت العلا تخيماً
صلوا على نور تجلى صبحه فجلا ظلاماً للضلال
صلوا على هاد أراناً هديه نهجا من الدين الحنيف قويماً

ابن زمرك:

وابن زمرك من الشعراء البارزين الذين نظموا قصائد في مدح النبيّ، وهو من شعراء الأندلس ومن مشاهير كتّابها في الدولة النصرية، على عهد بني الأحمر. قال في ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم²:

وبليلة الميلاد كم من رحمة نشر الإله بها ومن نعماء
قد بشر الرسل الكرام ببعثه وتقدم الكهان بالانباء
أكرم بها بشرى على قدم سرت في الكون كالأرواح في الأعضاء
أمسى بها الإسلام يشرق نوره والكفر اصبح فاحم الارحاء
هو آية الله التي أنوارها تجلو ظلام الشك أي جلاء
ومن موشحة له في ميلاد النبيّ صلى الله عليه وسلم³:

¹ - أحمد المقرئ: نفع الطيب في غصن الأندلس، 7: 440.

² - محسن جمال الدين: احتفالات الموالد النبوية في الأشعار الأندلسية والمغربية والمهجرية، دار البصري، بغداد، ط.1، 1967، ص: 28.

³ - محسن جمال الدين: احتفالات الموالد النبوية في الأشعار الأندلسية والمغربية والمهجرية، ص: 29.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

يا مُصطفى والخَلق رهن العدم
مزِيّة أُعطيَتها في القِدم
مولدك المرقوب لَمَّا نَجْم
ناديتُ لو يُسمح لي بالجواب
أطلعتَ للهدى بغير احتجاب
والكون لم يفتق تمام الوجود
بها على كلِّ نبيّ تسود
أنجز للأمة وعدّ السعود
شهرَ ربيع: يا ربيعَ القلوب
شمساً، ولكن ما لها من غروب

ابن جابر الأندلسي:

ومن الشعراء الذين نظموا قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم نستحضر ابن جابر الأندلسي الذي أكثر من النظم في المديح النبوي، وله ديوان سماه (العقدين في مدح سيد الكونين). ومن مدائحه النبوية قوله في إحداها¹:

عرج على باب الغريب ونادى
وإذا مررت على المنازل بالحمى
إيه فديتك يا شيمة خبري
يا سعد قد بان العذيب وبأنه
خذ في البشارة مهجتي يوماً إذا
ومن قوله في مولدية له²:

وانشد فديتك أين حل فؤادي
فاشرح هنالك لوعتي وسهادي
كيف الأحبة والحمى والوادي
فانزل فديتك قد بدا إسعادي
بان العذيب وبان حسن سعاد

يا من تقدّس عن أن
ومن تعالى جلالاً
ومن قبولُ ثنائِي
صلى على من تبدى
ومن علا الفخر لَمَّا
يحيط وصفاً بذاته
عن مشبهٍ في صفاته
إليه أسنى هباته
نور الهدى من سماته
نمى إلى معلواته

¹ - ابن جابر الأندلسي: الحلة السيرا في مدح خير الورى، تح: علي أبو زيد، عالم الكتب، بيروت، ط. 2، 1985، ص: 15.

² - أحمد المقرئ: نفع الطيب في غصن الأندلس، 7: 501.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

يوسف المنتشاقري:

ولأبي الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري في أدب المولد شعر منه قصيدة طويلة يقول في بعض أبياتها¹:

حبي ومدحي أحمد الهادي الذي فوز الأنام يصح في تصديقه
أسمى الوري في منصب ومنسب من هاشم زاكي النجار عريقه
الحق أظهره عقيب خفائه والدين نظمه لدى تفريقه
ونفى هداه ضلالة من جائر مستوثق بيغوته ويعوقه
سبحان مرسله الينا رحمة يهدى ويهدى الفضل من توفيقه

غير أن تسديسته النبوية أعلى نفسا، وأحسن معنى، وأقرب إلى الجو الروحي للنبوة، وقد بناها على حروف المعجم، مكررا المطلع عند الانتهاء من كل حرف هجائي. ومما جاء فيها²:

صفوة الخلق خاتم الأنبياء . مرشد الناس للطريق السواء
والعماد الملاذ في الأواء وشفيع العصاة يوم الجزاء
يوم يبدو لديه جاه عظيم فعليه الصلاة والتسليم

...

أذهب الغي نوره والغياب فإضاءت مشارق ومغارب
وغدا الحق غالبا للأكاذب وبدت منه للأنام عجائب
صدق أقواله بما معلوم فعليه الصلاة والتسليم

أبو سعيد بن لب:

يقول أبو سعيد فرج بن لب (ت. 782هـ) في مدح النبي الكريم

تروم جفوني لنار الهوى خمودا، فتهمي دموعا غزارا
فماء جفوني يسحّ انهمالا ونار فؤادي تهيج استعارا
فيا فوز من فاز في طيبة بلثم المغاني جدارا جدارا

¹ - أحمد المقرئ: نفع الطيب في غصن الأندلس، 7: 140.

² - المصدر نفسه، 7: 141.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

وألصق خدا على ترهما وأكمل حجا بها واعتمارا
فيا هادي الخلق دار نعيم تناهت جمالا وطابت قرارا

3- الشعر الديني في عهد (بني مرين) في بلاد المغرب

نقل العرب إلى المغرب لغتهم وتقاليدهم الأدبية الشعرية، وكانت حركة الشعر في عهد الفتوح ضعيفة لانصراف الناس إلى طلب الاستقرار، ثم جاء عهد المرابطين والموحدين فكان الازدهار الذي عمّ البلاد، وظهرت آثاره في جميع مرافق الحياة، كما ظهرت في الأدب والشعر¹. وجد الأدب المغربي في هذه الحقبة في أعقاب العصر العباسي، وبجوار الأدب الأندلسي، فتأثر بهما وأخذ عنهما دون أن يفقد شخصيته المغربية، ولقد طبع الشعر أيضا بالطابع الديني، وتأثر بالهداية والمبادئ والقيم، فقل شعر الخمريات وقلّ أدب التغزل²، وشاع المديح النبوي، الذي عرف نقلة نوعية، في الأندلس، خاصة عهد ملوك الطوائف، وظهر روّاده من أمثال: ابن جابر الأندلسي، ولسان الدين بن الخطيب، حيث أصبح له ميزة خاصة تعكس الجانب الثقافي والاجتماعي، وحتى السياسي للشخصية المغربية، وخاصة عندما يحتفل بعيد المولد النبوي الشريف. وفي بلاد المغرب كان أول من تنبه إلى الاحتفال به هم (بنو العز) في مدينة "سبتة" في أواخر القرن 6هـ، وترجع أغلب المصادر الموثوقة على أن أسرة (آل العز) الحاكمين لمدينة "سبتة" أنهم هم من كان له الأسبقية والتشريع للاحتفال بالمولد النبوي³. ومن الطبيعي أن تنعكس هذه الاحتفالات على الشعر والأدب لما تحمله المناسبة من أهمية كبيرة، فاستجاب لها الشعراء، وحرصوا على تداولها في أشعارهم، ومدائحهم، والتباري بها ليلة المولد في بلاط السلطان⁴.

¹ - حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار الجيل، بيروت، ط.2، 1991، 3: 350.

² - المرجع نفسه 3: 351.

³ - ينظر: عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث، الجزائر، ط.1، 1986، ص: 221.

⁴ - المرجع نفسه ص: 263.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

وازدهر الشعر في عهد (بني مرين)، ونضج نضوجا شديدا، حيث شهدت هذه المناسبة عناية خاصة، واهتمام كبير، حيث صارت الدولة في عصر السلطان المريني أبي حسن (731-794هـ، 1331-1348م)، تتحمل نفقات الاحتفال بهذه الليلة ضمن المراسيم التي تقيمها¹.

3-1- نماذج من الأدب الديني المغربي:

نظم الشعراء الكثير من القصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعداد مناقبه الفاضلة، وذكر صفاته الحميدة وذكر سيرته النبوية الشريفة وذكر الأماكن المقدسة وطلب شفاعته. وكان من أهم الشعراء المغاربة الذين اشتهروا بالمديح النبوي:

مالك بن المرحل:

من أعظم شعراء المغرب شهرة على الإطلاق. ولد سنة 604هـ، ونشأ بسبته، كان متفوقا بأدبه وعلمه. له مجموع في المدائح النبوية سمّاه "الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة"، رتبها على حروف المعجم، كل حرف يتكرر عشرين مرة، كما التزم نفسه افتتاح أبياتها بالحرف الروي الذي تمثله كل مقطوعة². يقول في حرف الألف:

إلى المصطفى أهديت غر ثنائي فيا طيب إهدائي وحسن هدائي
أكاليل من مدح النبي محمد بما حازت الآداب كل بهاء
أضفت إلى ميلاده غزواته وما عنّي لي من آية وأياء
وهكذا يمضي في كل مجموعة فيبتدئ البيت بنفس الحرف الذي يكون هو روي القصيدة وفق هذا الالتزام³.

¹ - عبد العزيز فيلال: تلمسان في العهد الزياني، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر (2002)، 2: 276.

² - محمد تاويت: الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط.1، 1982، 1: 339.

³ - عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب (في العلم والأدب والسياسة)، دار ابن الحزم، دار البيضاء، المغرب، ط.1، 2010، 1:

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

ولابن المرحل ميمية مشهورة عارض بها ميمية البوصيري، يقول فيها¹:

شوقٌ كما رُفَعَتْ نارٌ على تشبُّ بين ضلَع الضَّالِّ
ألفُه بضلوعي وهُوَ حتَّى برانِي برياً ليسَ
من يشتريني بالبُشرى عبداً إذا نظرتُ عيني إلى
دعُ للحبيبِ ذمامي واحتملُ فليسَ ذا قدمٍ من لئسَ ذا
يا أهل طيبة طاب العيش جاورتُم خيراً مبعوثٍ إلى

عبد العزيز بن محمد القشتالي:

ومن شعراء المغرب الذين برعوا ونظموا قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم (عبد العزيز بن محمد القشتالي)، الذي نظم قصيدة نونية مدح بها سيد الوجود ((صلى الله عليه وسلم))، وتخلص إلى مدح مولانا السلطان المنصور بالله أبي العباس أحمد الحسيني أمير المؤمنين صاحب المغرب يقول فيها²:

مُحَمَّدٌ خَيْرُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهَا وَسَيِّدُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ إِنْسٍ وَمِنْ جَانٍ
وَمَنْ بَشَّرَتْ فِي بَعْثِهِ قَبْلَ كَوْنِهِ نَوَامِسُ كُهَّانٍ وَأَخْبَارُ رُهْبَانٍ
وَعِلَّةُ هَذَا الْكَوْنِ لَوْلَاهُ مَا سَمَتْ سَمَاءٌ وَلَا غَاضَتْ طَوَافِحُ طُوفَانٍ
وَلَا زُحِرِفَتْ مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ أَرْبَعُ تُسَبِّحُ فِيهَا أَدْمُ حُورٍ وَوَلْدَانٍ
وَلَا طَلَعَتْ شَمْسُ الْهُدَى غِبًّا دَجِيَّةً تَجَهَّمُ مِنْ دَيْجُورِهَا لَيْلُ كُفْرَانٍ

ميمون الخطابي:

ومن شعراء المغرب الذين أبدعوا في نظم قصائد في مدح سيد الوجود (ميمون الخطابي)، الذي كان شاعراً فحلاً، والأبيات من إحدى قصائده التي تجاوزت المائة والخمسين بيتاً وهي آية من آيات البلاغة والسحر، حيث يقول فيها³:

¹ - لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، ط.2، 1973، 3: 314، 315.

² - أحمد المقرئ: نفع الطيب في غصن الأندلس، 5: 25-27.

³ - عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، 1: 902.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

حقيق علينا أن نجيب المعاليا
ونجمع أشتات الأعاريض حسبة
رسول براه الله من صفو نوره
ومازال ذاك النور من عهد آدم
ثوى في ظهور الطيبين يصونه
لنفي في مد الحبيب المعانيا
ونحشر في ذات الإله القوافيا
والبسه بردا من النور ضافيا
ينير به الله العصور الخواليا
وديعة سر صار بالبعث فاشيا

ابن جزى الكلبي:

ومن شعراء غرناطة الذين نظموا قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ابن جزى الكلبي، فقد كان فقهيا حافظا قائما على التدريس ومن قصائده في النبي يقول¹:

أروم امتداح المصطفي فيردني
ومن لي بحصر البحر والبحر زاخر
ولو أن كل العالمين تألفوا
فأمسكت عنه هيبه وتأدبا
ورب سكوت كان فيه بلاغة
قصوري عن ادراك تلك المناقب
ومن لي بإحصاء الحصى والكواكب
على مدحه لم يبلغوا بعض واجب
وخوفا وإعظاما لأرفع جانب
ورب كلام كان فيه عتب لعاتب

يحيى بن خلدون:

من شعراء المديح يحيى بن خلدون، وقصيدته في المدح النبوي، هذا فيه حذو لسان الدين بن الخطيب²:

ما على الصب في الهوى من جناح
وا خساري يوم القيامة إن لم
لم اقدم وسيلة فيه إلا
زهرة الغيب مظهر الوحي معنى الـ
من لميلاده بمكة ضاءت
أن يرى خلف عبرة وافتضح
يغفر الله ذلتي واجتراحي
حب خير الورى الشفيح الماحي
نور كنه المشكاة والمصباح
في قرى قيصر جميع الضواحي

¹ - لسان الدين بن الخطيب: الكتيبة الكاملة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط.1، 1983، ص: 48.

² - أحمد المقرئ: نفع الطيب في غصن الأندلس، 7: 511.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

المبحث الثاني: مدائح ابن الخطيب الدينية

أولاً: ترجمة لسان الدين بن الخطيب

ثانياً: مدائح ابن الخطيب الدينية (الأندلسية والمغربية)

1- لسان الدين بن الخطيب (حياته وآثاره)

1-1- حياته:

هو محمد، بن عبد الله، بن سعيد، بن عبد الله، بن سعيد، بن علي، بن أحمد السلماني نسبة إلى سلمان، وسلمان حي من مراد من عرب اليمن القحطانيين، قرطبي الأصل¹، يكنى بأبي عبد الله، وكان كثير الألقاب:

يلقب بـ "لسان الدين"، على طرقة المشاركة في عصره²،

ويلقب بـ "ذي الوزارتين"، وهو لقب من ألقاب الدولة اشتهر به، وكان يطلق في العادة على من جمع بين وزارتي السيف والقلم،

ويلقب بـ "ذي الميتين"؛ إذ كان للأحداث التي رافقت وفاته أثر كبير على إطلاق هذا اللقب، حيث إن الجناة الذين تولوا قتله، لم يكفهم خنقه ودفنه، بل نبشوا قبره، وألقوا جثته في النار من عظيم حقدهم، ثم أعادوا دفنه.

ويلقب "بذو العمرين"؛ وقد كان مصاب بداء الأرق الذي لازمه طول حياته، فكان يقوم بأعباء الدولة نهاراً، ويؤلف حين يكون الناس نياماً، فكأنما امتلك عمرين³.

ولد ابن الخطيب بمدينة "لوشة" القريبة من غرناطة الأندلسية، وكانت ولادته في: (713هـ/1313م)، في بيت كان من أشهر البيوت العربية التي نزلت غرناطة، علماً ومجداً ورئاسة. ولما كان جدّه (سعيد) من أهل التعليم والتدريس، غلب عليه لقب (الخطيب)، الذي سوف يورثه أبناءه من بعده.

¹ - ينظر: أحمد المقرئ: أزهار الرياض، 1: 186

² - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، 1: 7.

³ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: الديوان، ص: 53، 54

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

تلقى ابن الخطيب العلم والأدب عن جملة من أهل العلم والفقهاء، فقد كان أبوه (عبد الله) من أكابر العلماء والخاصة¹، إلى جانب منصبه السياسي، في ديوان الإنشاء، في عهد (ابن الوليد إسماعيل).

وحيث توفي أبوه (سنة 741هـ)، خلفه في ديوان الإنشاء، الذي كان يرأسه (أبو الحسن بن الجياب) وزير السلطان (أبي الحجاج، يوسف بن إسماعيل) [718هـ-755هـ]، الملقب بـ (المؤيد بالله)، فتولى أمانة سر هذا الديوان، ثم خلف (ابن الجياب) بعد وفاته، عام 749هـ، فأصبح رئيس الكتاب، ورئيس ديوان الإنشاء².

ظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى (أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن إسماعيل) [738هـ-791هـ]، الملقب بـ (الغني بالله)، إذ منحه ثقته كأبيه من قبل، ولكن حدث أن اندلعت الثورة بغرناطة، انتهت باستلاء أخيه الأمير (أبو الوليد، إسماعيل بن يوسف) [679هـ-725هـ]، الملقب بـ (الغالب بالله) على العرش، فقبض على ابن الخطيب، بتحريض من منافسيه وحاسديه، وصدورت أملاكه³.

وحدث أن بعث سلطان المغرب (أبو سالم المريني) سفيره إلى سلطان غرناطة الجديد، يطلب منه السماح للملك المخلوع (الغني بالله)، ووزيره (ابن الخطيب) باللجوء إلى المغرب فاستجاب السلطان الغرناطي (،) وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب في رعاية السلطان (سالم)، الذي أقطعه الأراضي ورتب له الرواتب، مختاراً مدينة "سلا" مستقراً له⁴.

وبعد أن أقام ابن الخطيب سنتين في "سلا"، عاد إلى "غرناطة" أثر استعادة (الغني بالله) ملكه المسلوب، فأعادته إلى مناصبه القديمة، ولقّب به بـ "ذي الوزارتين: السيف والقلم"، لكن سرعان ما وجد نفسه مستهدفاً من حاسديه، الذين شنوا عليه حملة تشهير على مؤلفاته، محرضين السلطان (الغني بالله) عليه، باتهامه بالإلحاد، وسلوكه مذهب الفلاسفة⁵، وكان محرك هذا الصراع، الشاعر محمد بن يوسف المعروف بـ (ابن زمرك)، تلميذ ابن الخطيب، ومعاونه في الوزارة،

¹ - ينظر: نبيل خالد الخطيب: لسان الدين ابن الخطيب (نثره، شعره، ثقافته)، دار النهضة العربية، بيروت، ط.1، 2014، ص: 78.

² - ينظر: منجد مصطفى بجحت: الأدب الأندلسي (من الفتح حتى سقوط غرناطة)، دار اليقين، عمان - الأردن، ط.2، 2006، ص: 276.

³ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة، القاهرة، ط.1، 2002، ص: .

⁴ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: معيار الاختيار، 15.

⁵ - ينظر: عمر الفروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط.1، 1983، 6: 505.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

وقاضي الجماعة، أبو الحسن علي بن عبد الله النبھاني، وليّ نعمة ابن الخطيب¹، فأعدّ العدة لمغادرة الأندلس، واتصل - سرا - بسطان المغرب (عبد العزيز) ابن السلطان (أبي الحسن المريني)، فحصل منه على الأمان والحماية². ودبر أمر مغادرته الأندلس نهائياً دون أن يشعر السلطان الغرناطي بذلك، مستغلاً مهمّة رتبها لنفسه، وذلك بأن يأذن له في تفقد بعض الثغور والموانئ الأندلسية، فأجابه السلطان، ونجحت خطته، واجتاز مضيق "جبل طارق" إلى "سبتة" المغربية، ومنها إلى "تلمسان". وقبل أن يودع ابن الخطيب الأندلس، بعث برسالة مؤثرة إلى السلطان (الغني بالله)، يبرّر فيها تصرفه الاضطراري³.

ولم يهدأ خصومه بغرناطة (القاضي النبھاني والشاعر زمرك)، بل دسوا عليه، عند الغني بالله، تمّة تحريض السلطان المريني، في "فاس"، على غزو الأندلس، وضم غرناطة إليه، فطالب برأسه عند السلطان المريني، فأبى سلطان "فاس" تسليمه إليه. ولم يلبث السلطان المريني أن توفي (سنة 774هـ)، واضطرت الأمور في "فاس"، وتولى سلطنتها (أبو سالم المريني) سنة 776هـ، - بمساعدة الغني بالله - فأودع ابن الخطيب السجن إرضاء لـ (الغني بالله)، وعربون وفاء لمساعدته⁴.

ويرسل سلطان غرناطة سفيره ووزيره (ابن زمرك) إلى "فاس"، لمحاجة ابن الخطيب، ومناقشته في بعض ما جاء من مقالات وكلمات أوردها كتابه "روضة التعريف بالحلب الشريف"، متهما إياه بالمروق عن الدين والزندقة، فتحامل عليه مجلس السلطان، فأحرقت كتبه، وأودع السجن، "فطوقوا عليه السجن ليلاً، وقتلوه خنقاً، وأخرجوا شلوه من الغد، فدفن بمقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على شفير قبره طريحاً، وقد جمعت له أعواد، واضرمت عليه النار، فاحترق شعره، وأسودّ بشره، فأعيد إلى حفرته"⁵. وكانت وفاته في: (767هـ / 1375م). وكان لسان الدين يتوقع مصيئته، فبكى نفسه قبل موته⁶:

¹ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: معيار الاختيار، ص: 17.

² - ينظر: نبيل خالد الخطيب: لسان الدين ابن الخطيب، ص: 90.

³ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: معيار الاختيار، ص: 17-18.

⁴ - ينظر: تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس)، دار المعارف، القاهرة، ط. 11، 2017، 8: 418.

⁵ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، تح: سيد كسراوي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 2003، 1: 13.

⁶ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: روضة التعريف بالحلب الشريف، 1: 43.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

- بُعْدَنَا، وَإِنْ جَاوَرَتْنا الْبُيُوتُ .
وَأَنْفَاسُنَا سَكَتَتْ دَفْعَةً .
وَكُنَّا عِظَامًا فَصِرْنَا عِظَامًا .
وَجئْنَا بـوعَظٍ، وَنَحْنُ صُـمُوتُ .
كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهُ الْقُنُوتُ .
وَكُنَّا نَقُوتُ فَهَـنَا نَحْنُ قُوتُ .

إلى أن يقول:

- فَقُلْ لِلْعِـدَا: ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ .
فَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْكُمْ لَهُ .
وفات، وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفُوتُ .
فَقُلْ: يَفْرَحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ .

وهكذا، ذهب الكاتب والشاعر الكبير والمفكر العبقرى ضحية الجهالة والتعصب، والأحقاد السياسية الوضيعة، تاركا من الأبناء ثلاثة: عبد الله ومحمد وعلي، وقد نكب في زوجته من قبل، وقد أكدت المراجع أنه كان معها على قدر كبير من التآلف والتوافق، وقد هزّه موته، فدفنها في محل إقامته، وراثها بشعر مؤثر حزين¹:

- رُوعَ بِالِـي، وَهَاجَ بِلِبَالِي .
ذخيرتي حين خاني زمني .
حفرت في داري الضريح لها .
وسامني الثكلُ بعدَ إقبال .
وعُدَّتِي في اشتداد أهوال .
تعللاً بالمُحال في الحال .

أمّا أبناؤه الثلاثة، فكان (عبد الله) أكبرهم، فقد كان كاتباً شاعراً، خدم عدداً من ملوك الأندلس أيام كان أبوه مدير الدولة، كما كان كاتباً في ديوان الإنشاء، عند السلطان المغربي (أبي سالم)، لما كان والده منفياً بـ "سلا".

¹ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، 1: 15، 16.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

وأما ولده (محمد)، فقد توجه إلى التصوّف، ولم تكن له الرغبة في خدمة الملوك، في حين، كان (علي)، وهو أصغر أولاده، شاعر البيت بعد أبيه، ومن المقربين عند السلطان (الغني بالله)، ثم السلطان (أبي العباس أحمد المريني)، ابن السلطان (أبي سالم)¹.

كان لسان الدين بن الخطيب واسع الثقافة، محيطا بفنون عصره، بارع التعبير عن كل موضوع يتناوله، حتى إنّه غطى على كثير من نبغاء عصره، فبرع في الفلسفة، والسياسة، والطب، وكان مؤرخ عصره بدون منازع، وهو الأديب الناثر والمترسّل، والشاعر المقتدر، وهو صاحب الإنتاج الغزير في الشعر والنثر، لكنّه كان كثير التكلّف والتصنّع فيهما، ممّا عكس مقدرة كبيرة في هذين الفنين، ومكنة أسلوبية تجلّت فيهما القوة والفخامة. ويبقى إنتاج لسان الدين، من حيث القيمة المعرفية، صورة أمينة للعصر الذي عاش فيه².

كان لابن الخطيب تلامذة كثر، من أشهرهم: الوزير الكاتب (ابن زمرك)، الذي تنكر له حسدا وغيره، والطبيب العالم (ابن المهنا) شارح ألفية ابن سينا، وقد نقل عن لسان الدين كثيرا، والأديب الكاتب (ابن جزي الكلبي)، الذي أملاه الرحالة ابن بطوطة رحلته³. أما شيوخه، فنذكر منهم: أبو الحسن ابن الجيّاب، الوزير والشاعر، صاحب القلم الأعلى⁴، وقد كان رئيس ابن الخطيب وشيخه في ديوان الإنشاء، زمن السلطان (أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل)، ومنهم: الفقيه الورع، والفيلسوف الحكيم (ابن هذيل التجيبي)، الذي أخذ عنه لسان الدين علوم الطب، وعلوم الفلسفة، وأصول التربية والتعليم، وقد أثنى لسان الدين ثناء جميلا حين يترجم له⁵، ومن شيوخه - أيضا - المحدث الفقيه (محمد بن محمد بن مرزوق التلمساني)، الذي أخذ عنه علوم الدين⁶.

¹ -المصدر نفسه، ينظر: نبيل خالد الخطيب: لسان الدين ابن الخطيب (نثره، شعره، ثقافته)، دار النهضة العربية، بيروت، ط.1، 2014، ص: 105، 106.

² - ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، 6: 506.

³ - ينظر: نبيل خالد الخطيب: لسان الدين ابن الخطيب، ص: 107.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 76.

⁵ - بالمرجع نفسه، ص: 76.

⁶ - ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، 6: 50.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

1-2-1 - آثاره

ترك ابن الخطيب تراثا حافلا، متنوعا، بين تاريخ، وأدب، وسياسة، وتصوف، وطب، وقد وصلنا معظم هذا التراث، خاصة ما ارتبط بالشعر، والترسل، والتأريخ، والترجمة لأعلام عصره¹. ويمكننا رصد هذه الآثار في:

1-2-1-1 - المصنفات التاريخية:

الإحاطة في أخبار غرناطة: أشهر كتب لسان الدين، حيث بدأ تأليفه عند عودته من المغرب، وجعله في ثمانية أجزاء². وهذا المؤلف مكرس - أساسا - للحديث عن غرناطة، والإشادة بتاريخها، وأمجادها، والترجمة لأعلامها الأصلاء فيها أو النازحين إليها أو الغرباء العابرين عليها، وقد ضمّنه كثيرا من رسائله الديوانية والإخوانية³.

الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: وهو من كتبه الأخيرة، وقد ألفه عند اعتزاه الرحلة إلى الحجاز قصد الحج، معرفا أهل المشرق بشخصيات أندلس، من خطباء، ومتصوفة، ومقرئين، ومدرسين، وقضاة، وكتاب وشعراء. وقد ترجم لسان الدين في "الكتيبة الكامنة" لمائة، وثلاثة منهم، مقدما صورة للحياة الفكرية، والدينية، والأدبية، في القرن الثامن الهجري⁴.

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب: هذا الكتاب من أهم كتب ابن الخطيب بل ربما كان أهم كتاب بعد كتاب الإحاطة ووجه أهمية النفاضة أنه، فضلا عن ضخامة حجمه، يعتبر بالنسبة لابن الخطيب مذكراته الشخصية عن فترة من أهم فترات حياته وهي فترة قضاها في عزلته في سلا من رجب 761هـ إلى رجب 763هـ، ثم بعد ذلك منذ عودته إلى الأندلس وتولى الوزارة للمرة الثانية حتى ربيع الأول سنة 764هـ⁵.

¹ - ينظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، 1: 53.

² - ينظر: نبيل خالد الخطيب: لسان الدين ابن الخطيب، ص: 112.

³ - ينظر: محمد مسعود جبران: فنون النثر الأدبي (في آثار لسان الدين بن الخطيب)، دار مدار الإسلامية، بيروت، ط. 1، 2004، 1: 87.

⁴ - لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، 1: 55.

⁵ - المصدر نفسه، 1: 56.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: وهذا آخر كتاب ألفه ابن الخطيب قبل مقتله¹، وقد تركه ناقصا ولم يتح له القدر لإكماله وقد ألفه الوزير أبي بكر بن غازي عقب وفاة عبد العزيز المريني وتنصيب ولده الطفل السعيد سلطانا²، فخصص الكتاب لذكر جميع المسلمين الذين بويغوا قبل الاحتلام إلا أن لسان الدين قد تجاوز هذه الغاية إلى وضع كتاب تاريخي شامل لدول الإسلام³.

1-2-2- الترسل والأدب والمصنفات الخاصة:

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: هو عبارة عن مجموعة من مقتبسات مؤلفاته الأخرى مثل كناسة الدكان بعد انتقال السكان والإحاطة ورقم الحلل، تضمن عددا كبيرا من الوثائق التاريخية المهمة من مخاطبات الملوك إلى عمالهم وإلى ملوك البلاد المجاورة الإسلامية والنصرانية⁴.

كناسة الدكان بعد انتقال السكان: هذا الكتاب وضعه ابن الخطيب في بداية إقامته الأولى بسلا منفيا بالمغرب وهو عبارة عن مجموعة من الرسائل السلطانية كتبها ابن الخطيب في بداية حياته الوزارية عن السلطان أبي الحجاج يوسف إلى السلطان أبي عنان المريني ملك المغرب في أغراض سياسية وعسكرية وبعض الرسائل الأخرى المختلفة⁵.

معيار الاختيار في ذكر المشاهد والديار: أو في ذكر المعاهد والآثار وهو وصف نثري مسجع لمدن وبلاد مملكة غرناطة ولطائفة من المدن المغربية ويتألف من فصلين أو مجلسين كتبا على طريقة المحاورة⁶.

خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف: وصف لرحلة قام بها سلطان غرناطة مع وزيرة ابن الخطيب لتفقد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطة، كتبها ابن الخطيب في قالب أدبي مسجوع

¹ - نبيل خالد الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب، ص 126.

² - لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، 1: 57.

³ - المصدر نفسه، 1: 126.

⁴ - نبيل خالد الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب، ص 132.

⁵ - لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة 1: 61.

⁶ - المصدر نفسه، 1: 61.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

هو أقرب إلى طريقة المقامات وأهمية نص الرحلة هذه أنه يقدم صورة دقيقة لطرق معيشة الأندلسيين وذلك العصر ولعادتهم الاجتماعية¹.

روضة التعريف بالحب الشريف: من أهم مؤلفات ابن الخطيب ويعتبر بفكرته وأسلوبه من أقوى نثقات ابن الخطيب الثرية وأبلغها وأحفلها بالأفكار الفلسفية الطريفة والتشبيهات المبتكرة في موضوع المحبة الروحية والإلهية.

استئزال اللطف الموجود في سير الوجود: هي رسالة صغيرة في التصوف².

1-2-3- الآثار الشعرية:

- ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام
- السحر والشعر
- جيش التوشيح،

والظاهر أن مؤلفات ابن الخطيب التي لم تصل إلينا قد هلك معظمها في محنة احراق كتبه، التي وقعت في غرناطة في سنة 773هـ، وهي من كتب الطب والتصوف والموسيقى، وأن معظم كتبه التي نجت من تلك المحنة قد وصل إلينا عن طريق بلاد المغرب الأقصى³.

2- مدائح ابن الخطيب الدينية (الأندلسية والمغربية)

أُثِرَتْ عن لسان الدين بن الخطيب اثنتا عشرة قصيدة مولدية، قالها في فترتين ممتدتين من حياته الأندلسية والمغربية، بعضها قالها زمن السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري سابع ملوك بني الأحمر في غرناطة، وبعضها قالها زمن ابنه السلطان الغني بالله محمد بن أبي الحجاج يوسف، وبعضها قالها زمن السلطان المريني أبي سالم إبراهيم ملك فاس بالمغرب.

¹ - نبيل خالد الخطيب، لسان الدين ابن الخطيب، ص 128.

² - المصدر السابق، 1: 63.

³ - لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة، 1: 53.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

1-2- مدائح الأندلسية:

البائية:

كتبها نيابة عن السلطان (الغني بالله)، لترسل إلى الضريح النبوي، وهي قصيدة تقع في 54

بيتا، ومطلعها:

دعاك بأقصى المغربين غريب وأنت على بعد المزار قريب
ومنها:

أيا خاتمَ الرُّسُلِ المكين مكانه حديثُ الغريبِ الدارِ فيك غريبُ
فؤادٌ على جمرِ البعادِ مقلَّبُ يماحُ عليه للدموعِ قليبُ
فوالله ما يزدادُ إلا تلهُّباً أبصرتِ ناراً ثارَ عنه لهيبُ
فليئتُهُ ليلَ السَّليمِ ويومُها إذا شدَّ للشوقِ العِصابُ عَصيبُ
هوأي هُدَى فيك اهتديتُ بنوره ومنتسبي للصَّحْبِ منك نسيبُ

الحائية الأولى:

تقع في 60 بيتا، ومطلعها:

دعاك بأقصى المغربين غريب وأنت على بعد المزار قريب

ومنها:

إليك رسول الله شدت نسوعها وغادرها الإدلاج وهي طلائح
تحملن من زوار قبرك فتية تواصل في ذات الهدى وتنازح
حنانيكما يا صاحي بمغرم جوانحه نحو الحجيج جوانح
تداني هوى لما تباعد مترلا فها هو دان في الزيارة نازح
وها أنت يا إنسان عين يقينه بروضة من حاز المحاسن سارح

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

الحائية الثانية:

وقال في الجناب النبوي الكريم¹:

ملكت رسول الله رقي فمن يبرح
فلا كان لي جفن لبعدم لم يصب
فسعيك مدعى لا يخيب من نأى
فذاك فؤاد ضم حبك حبة
فأصبح غصنا ذا مروح ونعمة
وأوليتني الحظ الرغيب ومن يشرح
ولا كان لي قلب بقربك لم يفرح
ورعيك مرعى لا يضق بمن يشرح
كما يودع المبدور في الأرض أو يطرح
وما عذره مهما ذكرت فلم يرح

الحائية الثالثة:

وللسان الدين بن الخطيب ميلادية بارعة رقيقة، أنشدها أمام السلطان الغرناطي، تقع في

96 بيتا، ومطلعا:

ما على القلب بعدكم من جناح
أن يرى طائرا بغير جناح

ومما قال فيها²:

عادي من تذكر العهد عيد
سفحت فيه للدموع دماء
وركاب سروا وقد شمل الليل
حملت منهم ظهور المطايا
ستروا الوجد وهو نار وكان الـ
كان مي للعين عيد الأضح
فهي فوق الحدود ذات انسياح
بمسح الدجى جميع النواحي
أي جد بحت وعزم صراح
ستر يجدي لولا هبوب الرياح

¹ - لسان الدين بن الخطيب: الديوان: 240.

² - أحمد المقرئ: نفح الطيب، 7: 509.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

الدالية:

مطلع هذه الدالية:

هاجتك إذ جئت اللوى فزرودا ذكرارك أوطاننا بما وعهودا
عائت بمن يد الزمان فلم تجد أعلامهن عن العفاء محيدا
ومما قال فيها:
يا مصطفى الرحمن والنور الذي أخفى الضلال وأظهر التوحيدا
المنتقى من سر هاشم في الذرا حيث استقر مدى الفخار صعودا
جيران بيت الله والعرب الألى أضحوا على قنن النجوم قعودا
وحوى الكبير فخاره عن كابر وتوارث الأبناء فيه جدودا
أعلقت كفي منك جبل محبتي لا واهنا خلقا ولا مجدودا

الميمية:

وكتب للروضة النبوية رسالة عن السلطان ابي الحجاج يوسف، يقول فيها:

إذا فاتني ظل الحمى ونعيمه فحسب فؤادي أن يهب نسيمه
ويقنعني أي به متكلف فزمزمه دمعي وجسمي حطيمه

ومنها:

براني شوق للنبى محمد يسوم فؤادي برحه ما يسومه
ألا يا رسول اله ناداك ضارع على الناي محفوظ الوداد سليمه
مشوق اذا ما الليل مدرواقه متهم به تحت الظلام همومه
اذا ما حديث عنك جاءت به الصبا شجاه من الشوق الحثيث قديمه
أجهر بالنجوى وأنت سميعها ويشرح ما يخفي وأنت عليمه

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

2-2- مدائحه المغربية:

ويعد لسان بن الخطيب أشهر هؤلاء الشعراء الأندلسيين الذين عاشوا أمدا طويلا بين ربوع الدولة المرينية فقد عمل شاعر ومؤرخ في دولة بني مرين وكانت قريحة ابن الخطيب تتجاوب مع الأحداث والمناسبات التي تمر بها الدولة المرينية في الفترة التي أقام فيها¹. وقد ترك ابن الخطيب أشعارا في المولد النبوي أثناء مقامه بالمغرب كقصيدته الميمية وقصيدتين داليتين.

ومن مولديات هذه المرحلة:

الميمية:

قصيدة أنشدها في ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، عام تسعة وثلاثين وسبعمائة،
قصيدة تقع في 52 بيتا، مطلعها²:

إذا أنا لم أوتر هواي على عزمي فنفسي في طوعي وأمري في حكمي
وإن أنا أرجأت الأمور إلى غد طعنت بغرب الفخر في ثغرة الحزم

ومنها:

فله در القوم فيها وقد غدوا ضيوفا بمشوى سيد العرب والعجم
أقام لهم حيا أمانا من الردى وقام مقام الغيث في شدة الأزم
وحلوا به ميتا فكان قراهم خفاوة ذي روح ومأمن ذي جرم
رسول أتى حكم الكتاب بمدحه وأثنى عليه الله بالصدق والحلم
أحب من الحيا وأجدى من الحيا وأهدى لمن ضل السبيل من النجم

¹ - محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العهد المريني، دار القلم، الكويت، ط.2، 1987، ص: 354.

² - لسان الدين بن الخطيب: الديوان، 2: 529، 530.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

الدالية الأولى:

ومن قوله كذلك في القصيدة الميلادية الذي وجهها من مدينة "سلا" إلى "فاس"، وقد وجهها إلى أبي سالم، عام 763هـ، وهي قصيدة طويلة تقع في 85 بيتا:

تألق نجديا فأذكرني نجدا وهاج لي الشوق المبرح والوجد

ثم يقول¹:

تخلف مني ركب طيبة عانيا أما آن للعاني المعنى بأن يفدى
مخلف سرب قد أصيب جناحه وطرن فلم يسطع مراحا ولا مغدا
نشدتك يا ركب الحجاز تضاءلت لك الأرض مهما استعرض السهب وامتدا
إذا أنت شافهت الديار بطيبة وجئت بها القبر المقدس واللحدا
وآنست نورا من جناب محمد يداوي القلوب الغلف والأعين الرمدا

الدالية الثانية (الذهبية):

وأنشد ابن الخطيب السلطان أبا سالم المريبي، في ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قصيدته الدالية التي وصفها الشاعر بـ (المذهَّبة)، دلالة على إعجابه بها، وإشارة إلى قيمتها لديه، وقد بلغ عدد أبياتها 68 بيتاً، وكان مطلعها:

¹ - لسان الدين بن الخطيب: الديوان، 2: 345، 346.

الفصل الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب

دعا عزماتي والمطية والوحداء
ومن أبيات المذهبة، قوله¹:
ألا يا حداة الركب يبغون يثربا
بما بيننا من خلة طاب ذكرها
وإذا فرغت عوج المطي بكم نجدا
قد اكتنف الترب المقدس والحداء
وأبصرتم نور النبوة ساطعاً
وإلا فكفّ الشوق عني والوحداء
أعد لها الله السعادة والخلد
ولا قلب إلا خافق في شغافه
ولا طرف إلا من مهابتها ارتدا

¹ - لسان الدين بن الخطيب: الديوان، 2: 355، 356.

الفصل الثاني

المديح النبوي وخصائصه عند ابن الخطيب

المبحث الأول: المدائح الشعرية

المبحث الثاني: المدائح النثرية

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

المبحث الأول: المدائح الشعرية

1- دواعي الشعر الديني عند ابن الخطيب:

قد يبدو لدارس المولديات، أنّ المدائح النبوية في العصور المتأخرة (التي أخذت نموذجاً عن مدائح العهد الإسلامي الأول) متأثرة بتزعة الزهد والتصوف التي استفحلت مع عصور عصر الضعف،

لكن الكلام عنها عند لسان الدين بن الخطيب، قد لا يحقق هذه المقولة تماماً، إذ تستدعي منه أن يكون شخصية زاهدة، أو متصوفة، أو متعلقة بالجناب النبوي، حيث تتحول معه ممارسة الشعرية إلى شكل من الوقف، وضرب من الاختصاص، حال أبي العتاهية في زهدياته، وابن الفارض في صوفياته، والصرصري في مولدياته¹.

ولما كان لسان الدين بن الخطيب شخصية موسوعية في معارفه فإنّ الكتابة في موضوعه الدين لن تكون بالعملية العسيرة؛ إذ يستطيع الشاعر أن يخوض في موضوعات الزهد مثلاً، فيسير على طريقة شعراء عصره الذين تأثر كثير منهم باتجاه ديني واضح المعالم صنعه المرابطون، أو فرضه الموحدون عندما توسعت دولتهم في جزيرة الأندلس،

ويستطيع أن ينظم شعراً دينياً قد يتطلبه الحشد السياسي في عصره، وقد عايش زمن الاضطرابات السياسية (الإسلامية المسيحية) في الأندلس، فتكون فكرة الشعر الحماسي الجهادي، والدعوة إلى نصرته المسلمين مسوغاً مناسباً لانتشار أفكار الزهد في شعره.

كما نجد للطرق الصوفية، التي انتشرت ببلاد المغرب العربي، أثرها أيضاً في الحركة الشعرية السائدة، مما قد يروّج لكتابة القصيدة الصوفية مسaire لذوق العصر، وليس عن تجربة صوفية خالصة بالضرورة.

والدارس لمراحل حياة ابن الخطيب، وتطوراتها السريعة قد يتفهم دواعي تسرب قصيدة الزهد والتصوف والمولد في شعر ابن الخطيب،

¹ - جمال الدين يحيى بن يوسف البغدادي الصرصري نسبة إلى نهر صرصر، القريبة من بغداد قتل أثناء الزحف التتري على بغداد حين دخلوا بغداد، وهو من أكثر الشعراء المجيدين الذين نظموا في المديح النبوي. كان طويل النفس في قصائده، له مطولة نبوية من 850 بيتاً، سماها "الروضة الفاخرة في أخلاق محمد المصطفى الباهرة"، إلى جانب لامية تتكون من 557 بيتاً.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

وقد يكون لتقدم السن مدعاة لمراجعة النفس، ومقابلة شعر الشباب وعنفوانه بشعر الشيخوخة وإذعانه.

فقد تكتب القصيدة الصوفية بطلب من السلطان، إذا ما اظهر ميلا لأهل التصوف، أو وجد في نفسه مسوغا لذلك.

وقد يكون المديح النبوي تقليد احتفاليا لا يجد في ابن الخطيب مندوحة من الخوض فيه من باب المناسبة الرسمية، الواجب إحيائها أمام الحكام.

وقد تكون القصيدة الصوفية موضوعا متميزا عند الشاعر، صالحا لاختبار المكنة المعرفية وترجمتها إلى شعر صوفي.

وقد يكون شعر المديح النبوي ميدانا آخر للمباراة، خاصة بعد شيوع البديعيات وميل ابن الخطيب إلى مبدأ الصنعة في الأدب شعرا ونثرا.

غير أن هذه الأحكام لا يمكن أن تكون مطلقة إذا قد يتحقق بعضها تحققا صادقا، وقد يكون بعض هذا الشعر الديني تجربة شعرية صادقة، وتعبيرا ذاتيا خالصا. فالشاعر ابن بيته، ولسان عصره ومصره، ولا بد أن يكون جزء من واقعه المعيش، في شتى مظاهره السياسية والاجتماعية ومختلف تظاهراته الفكرية والأدبية، والشاعر مطالب - عندئذ - بأن يكون بصر مجتمعه وبصيرته، وأن يكون أدبه (شعره ونثره) ديوان وطنه، وسجل أمته، ومن هنا، فلا بد لابن الخطيب أن يشحن العواطف الدينية للمسلمين في جهادهم ضد التحالف الأوربي المسيحي، أو تحالف الممالك الاسبانية ضد الممالك الإسلامية، وطلب المدد والدعم من مسلمي المغرب.

ولفهم هذه المسؤولية العقيدية، نورد نصا نثريا توجه به ابن الخطيب إلى العامة يستنفرهم، ويحثهم على الدفاع عن بيضة الدين، والجهاد في سبيل الله.

جاء في كتاب: ریحانة الكتاب ونبعة المتنا¹

" لما اشتد تضيق الجيوش الاسبانية المسيحية المتحالفة على آخر ما تبقى من ممالك الإسلام في الأندلس كتب لسان الدين ابن الخطيب إلى الأمصار يحث الناس فيها على الجهاد فيقول :

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ریحانة الكتاب ونبعة المتنا، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. 1، 1981، 1: 61، 62.

الفصل الثاني الخائص الفنية:

"أيها الناس - رحمكم الله - : إخوانكم المسلمون دهم العدو - قصمه الله - ساحتهم، ورام الكفر - قبحه الله - استباحتهم؛ وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم، ومد الصليب ذراعيه إليهم.

هو دينكم، فانصروه، وجواركم القريب، فلا تخفروه، وسبيل الرشيد، قد وضح، فلتبصروه.

الجهاد الجهاد؛ فقد تعين.. الجار، الجار؛ فقد قرّر الشرع حقه وبين.. الله الله في الإسلام..، الله الله في أمة محمد ((عليه الصلاة والسلام))..؛ الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله.. الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله..؛ فقد استغاث بكم الدين فأغيثوه؛ وقد تأكّد عهد الله، حاشاكم أن تنكثوه! ..

أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله عند الشدائد، جدّدوا عوائد الخير، يصل الله لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة، وآسوا بأنفسكم وأمواكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، والسنة والآيات تناديكم، وسنة رسول الله ((صلى الله عليه وسلم)) قائمة فيكم، والله يقول فيه: ((يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم))؛ ومما صح عنه قوله: "من أغبرت قدماءه في سبيل الله، حرهما الله على النار؛ فلا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم"؛ و"من جهّز في سبيل الله فقد غزا"؛ أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسألكم عن عبادته، جاهدوا في الأنفس والاموال حق جهاده ..

ما ذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير معمد
إن قال: لم فرطتم في أمّتي وتركتموهم للعدو المعتدى؟
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذلك السيد .

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحرم الضعيف والأولاد، اللهم انصرنا على أعدائك بأحبائك وأوليائك يا خير الناصرين، اللهم ((افرغ علينا صبيرا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين)).

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

2- القصائد الحجية

تتجلى أنماط المدائح النبوية عند ابن الخطيب في صورتين: فهناك نصوص ترتبط بالحج مباشرة، وهناك نصوص ترتبط بمناسبة المولد النبوي الشريف، وهذه القصائد تأتي على نوعين:

2-1- قصائد حجية سلطانية:

مثالها: تلك القصائد التي نظمها ضمن رسائل نثرية كلف بكتابتها حال رسالة السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف، فيكون فحوى الرسالة تعبيراً عن الشاعر والسلطان معا وإن كان يتكلم بلسانه.

يقول لسان الدين على لسان السلطان في مطلعها¹:

- | | |
|-------------------------------|------------------------------|
| . اذا فاتني ظل الحمى ونعيمه | . فحسب فؤادي أن يهب نسيمه |
| . يعود فؤادي ذكر من سكن الغضا | . فيقعه فوق الفضا ويقيمه |
| . ولم أر شيئا كالنسيم اذا سري | . شفي سقم القلب المشوق سقيمه |
| . نعلل بالتذكار نفسا مشوقة | . ندير عليها كأسه ونديمه |

ومما قاله في الشوق النبي الكريم:

- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| . بنورك نور الله قد أشرق الهدى | . فأقماره وضاحة ونجومه |
| . ولي - يا رسول الله - فيك وراثة | . ومجدك لا ينسى الذمام كريمه |
| . وعندى الى أنصار دينك نسبة | . هي الفخر لا يخشى انتقالا مقيمه |

ثم يعتذر على عدم زيارته بالوضع الحرج الذي تعيشه بلاد الأندلس

وكان بودي أن أزور مبـوأ "بك افتخرت أطلاله ورسومه"

¹ - لسان الدين بن الخطيب: رجحانة الكتاب، ص: 55

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

- وقد يجهد الانسان طرف اعترامه
وعذري في تسوييف عزمي ظاهر
عدتني باقصى الغرب عن تربك العدا
أجاهد منهم في سبيك أمة .
- ويعوزه من بعد ذاك مرومه
اذا ضاق عذر العزم عنم يلومه
جلالقة الثغر الغريب ورومه
هي البحر يعي أمرها من يرومه .

ويختتم رسالته بالسلام على النبي الكريم

- فلولا اعتناء منك يا ملجا الوري
فلا تقطع الحبل الذي قد وصلته
ووأنت لنا الغيث الذي نستدره
فلا تنسني يا خير من وطىء الثرى
عليك سلام الله ما ذر شارق .
- لريع حماه واستبيح حريمه
فمجدك موفور النوال عميمه
وأنت لنا الظل الذي نستديمه
فمثلك لا ينسى لديه خديمه
وما راق من وجه الصباح نسيمه .

أما رسالة السلطان الغرناطي الغني بالله، فيسير مضمون رسالة الابن على نمط رسالة الأب الأولى، ويكون الضمير فيها موحدًا مشتركًا بين السلطان والشاعر. فيقول لسان الدين في مطلعها¹:

- دعاك بأقصى المغربين غريب
ويستودع الريح الشمال شمائلًا
ويطلب في جوب الجنوب جوابها
وسيتفهم الكف الخضيب ودمعه
ويتبع آثار المطي المشيعا .
- وأنت على بعد المزار قريب
من الحب لم يعلم بمن رقيب
اذا ما أطلت والصبح جنيب
غراما بجناء النجيع خضيب
وقد زمزم الحادي وحن نجيب .

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب وُنُجعة المتاب، ص: 62.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

فيذكر شوقه للبقاع المقدسة:

ألا ليت شعري والاماني ضلة
أينجد نجد بعد شحط مزاره
وكيف يضيق الذرع يوماً بقاصد
ذكرت به ركب الحجاز وجيرة
ترنحي الذكرى ويهفو بي الجوى
كما مال غصن في الرياض رطيب

ويذكر شوقه للرسول الكريم:

أيا حاتمَ الرُّسُلِ المكين مكانهُ
فؤادٌ على جمر البعاد مقلَّبُ
فوالله ما يزيدادُ إلا تلهُّباً
فليلتُهُ ليل السَّليم ويومُها
هوأي هُدَى فيك اهتديتُ بنوره
وحسي عُلاً أني لصحبك منتَم

حديثُ الغريبِ الدار فيك غريبُ
يمح عليه للدموع قليبُ
أأبصرت ناراً ثاراً عنه لهيبُ
إذا شُدَّ للشوق العِصابُ عَصيبُ
ومنتسبي للصَّحْب منك نسيبُ
وللخزرجيين الكرام نسيبُ

كما يشكو حال بلاد الأندلس، وتكالب النصارى عليهم:

عدت عن مغانيك المشوقة للعدا
حراسٌ على إطفاء نورِ قدحتهُ
فكم من شهيدٍ في رضاك مجدَّل
تمرُّ الرياحُ الغفلُ فوق كلومهم

عقاربُ لا يخفي لهنَّ ديبُ
فمستلبٌ من دونهٍ ولسيبُ
يظللُّ نصرٌ ويندُبُ ذيبُ
فتعبقُ من أنفاسها وتطيبُ

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ويخلص إلى يعتذر إلى النبي ويستغيثه

- . فعذراً وإغضاء ولا تنس صارحاً .
- . وجاهك بعد الله نرجو وإنه .
- . عليك صلاة الله ما عيب الفضا .
- . وما اهترت قد للغصون مرنح .
- . بعزك يرجو أن يُجيب مُجيبُ .
- . لحظُ مليء بالوفاء رغبُ .
- . عليك مطيلٌ بالثناء مصيبُ .
- . وما افتر ثغرٌ للبروق شنيبُ .

2-2- قصائد حجية ذاتية

أما القصائد التي كتبها ابن الخطيب خالصة له، وكان موضوعها الشوق إلى الحج وزيارة مقام النبي صلى الله عليه وسلم، قوله مستغيثاً¹:

- . إلهي بالبيت المقدس والمسعى .
- . وبالموقف المشهود يا ربّ في منى .
- . وبالمصطفى والصحب عجل إقالتى .
- . صدعت، وأنت المستغاث جنابه .
- . وجمع إذا ما الخلقُ قد نزلوا جمعا .
- . إذا ما أسأل الناسُ من خوفك الدمعا .
- . وأنجح دعائي فيك يا خير من يدعى .
- . أقلّ عشرتى يا موئلى واجبر الصدعا .

لقد استغاث بربه، وتوسّل بمقدساته: بالبيت العتيق، والمسعى، وجمع الحجيج بمزدلفة، وبموقفهم في منى، وبالرسول صلى الله عليه وسلم، راجياً أن يتجاوز عن سيئاته، وأن يقبل منه دعاءه

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ديوان الصيب والجهام والماضي والكهف، تح: محمد عبد الفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط.1، 1989، القصيدة رقم: 569.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ومثلها ما كتبه في الموضوع نفسه، حين أعلن عن رغبته في الحج إلى بيت الله الحرام¹:

- . جعلت إليك الله والملا الأعلى
- . ومن يقتضى الخلقُ الحقوقَ بجاهه
- . ولم أبقُ أما للشفاعة أو أبا
- . وبالقطب والغوث الذي بوجوده
- . فلا تحز في ردِّ كرامٍ وجوههم
- . حاشاك أن تبدو لهم منك وحشة
- . وسائل، لا تلقى شفاعتها كلاً
- . أتيتُ به، حتى النبيين والرُّسلا
- . ولا ابنا ولا جداله خبرٌ يتلى
- . وجود نظام الكون، إن عُدِم، اختلاً
- . ومهدّ لهم من برك الرّحْب والسّهلا
- . ومن دونهم عرّفته البرّ والفضلا

3- القصائد المولدية:

يظهر هذا النوع من القصائد المولدية على نوعين أيضاً:

3-1- مولديات سلطانية:

هناك قصائد ميلاد كتبت بحلول المولد النبوي الشريف فكان لزاماً أن يجتمع المديح النبوي مع المدح السلطاني. ففي قصيدة ميلادية مطلعها²:

- . إذا أنا لم أوثر هواي على عزمي
- . فنفسي في طوعي وأمري في حكمي

حيث تكلم الشاعر عن قصة المولد النبوي وفضلها، فقال:

- . وفي ليلة الميلاد منه بدت لها
- . وبشرها الأملاك أن وليدها
- . إلى أن فرى الليل عن نور وجهه
- . فخرت له الأصنام صرعى وزلزلت
- . فرام استراق السمع رائد غائب
- . شواهد لم تخطر لنفس ولا على وهم
- . إمام النبيين الكرام أولي العزم
- . كما شف سحب عن سنا قمر تم
- . بمكثها أجرام أجاها الشم
- . من الجن فانقضت له شهب الرجم

¹ - لسان الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 277.

² - الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 305.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ثم يتخلص تخلصاً ذكياً من مدر الرسول الكريم إلى مدح السلطان الغرناطي

- فله منها ليلة بركاتها .
- سحائبها تنهل بالنعيم العم .
- أشاد أمير المسلمين بذكرها .
- فأحيا سبيلا دارسا لأولي العلم .
- وآثر تقوى الله منها فلم يكن .
- بمشتغل عنها بزور ولا فم .
- وإن طلب الصعب الممنوع ناله .
- بمدركة الأقصى ومترلة العصم .
- إذا ما دجى روع فغرة يوسف
- تضيء بها الآفاق في الجادة الجهم .

ومثلها قصيدة مطلعها¹:

- أثار سناها والديار نوازح .
- سنا بارق من مطلع الوحي لائح .

حيث يستهل بمدح النبور، وبيان فضله في صناعة رجال يدافعون عن دعوته، ويتصرون

إلى الحق

- فمن كرسول الله للخلق ملجأ .
- إذا طوحتهم للزمان الطوائح .
- عنايته بالمذنبين عظيمة .
- إذا عظمت يوم الحساب الفضائح .
- وإننا اقتدينا فاهتدينا بصحبه .
- وما صحبه إلا النجوم اللوائح .
- أبادوا شياطين الضلال وزينت
- سما رسوم الحق منهم مصابح
- وأذهب ليل الشك صبح يقينهم
- فأسفر من فجر الحقائق واضح .

ثم يعطف من خلال هؤلاء الرجال إلى مدح السلطان أبي الحجاج يوسف

- فمن مثل مولانا الخليفة يوسف .
- إذا عدد الفخر الملوك الججاجح .
- إمام الهدى يا خير من بذل اللهى .
- وشادت علاه المعلوات الصرائح .

¹ - الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 133.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

- إذا اشتبهت آبي الخلائف في
- وإن رويت عنهم عوالي علائهم
- وإن مدح في المكرمات تعارضت .
- فأي نذاك المحكمات الفواتح .
- فآثار عليك الحسان الصحاح
- فأنت إلى الأذن من الله جانح

ويشيد بدوره في إحياء يوم المولد النبوي الشريف حفاظا على الشعائر الدينية المجيدة

- أقمت لميلاد الرسول شعائرا
- تباهت بأمداح الرسول محمد
- إذا نشرت فيها صحائف مدحه
- تلقتك من أرض الهنود لطائم
- هي الليلة الغراء حسبك ليلة
- بما الله عن ذنب المسلمين صافح
- فطابت بذكرها الرياح النوافح
- وذاعت بنشر الحمد منها الممادح .
- ينم بها من مسك دارين فائح
- بما نجم دين الله أزهر لائح

ولعل أشهر قصيدتين تذكران للسان الدين بن الخطيب في المديح النبوي قصيدتان داليتان طويلتان قاهما في السلطان المغربي أبو سالم يوسف المريني ومطلع الأولى¹:

دعا عزماتي والمطية والوخدا . وإلا فكفّ الشوق عني والوجدا
وأما الثانية، فمطلعها²:

تألق نجديا فأذكرني نجدا . وهاج لي الشوق المبرح والوجدا .
في القصيدة الأولى افتتح الشاعر نصه على طريقة المشاركة في ذكر الديار والبكاء عليها،
محملا الريح أشواقه إلى الحجاز وإلى مقام الرسول في طيبة، فيقول³:

دعا عزماتي والمطية والوخدا . وإلا فكفّ الشوق عني والوجدا
ألم ترياني كلما هبت الصبا . أبلّ بها من نار لوعي الخدا
وأصبو إلى الأفق الحجازي كلما . أجالت أكفّ البرق في آسها .
وما هي إلا زفرة هاجها الهوى وأبدى بها تذكّار يثرب ما أبدا

¹ - الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 238.

² - الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 237.

³ - الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 238.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ثم رفع صوته منادياً راجياً حداة الركب بما بينه وبينهم من مودة أن يخبروا الرسول (ص) بحاله وغربته وشوقه ورغبته بزيارته:

ألا يا حداة الركب يبغون يثربا . ويلقون في الله السامة والجهدا
فقولوا رسول الله يا خير خلقه . وأكرم مختار أبان به الرشدا .
غريب بأقصى الغرب طال اشتياقه . فلولا تعلات المنى لقضى وجدا .

وبعد ذلك انتقل لسان الدين إلى القسم الثاني من قصيدته هذه، ليتغنى بفضائل الرسول (ص) ويمدحه ثم تمنى أن يكون إلى جواره

فأنت ملاذ الخلق حياً وميتاً . وأكرمهم ذاتاً وأعظمهم مجدا .
فلولاك ما بان الضلال من الهدى . ولا امتاز في الأرض المكب من الأهدى .
وفاض على الأديان دينك . جنودك أقصى الشام والصين والهندا .
فصلى عليك الله يا خير راحم . وأشفق من يثني على رافة كيدا .
ويا ليت أني في جوارك ثاوياً . أو سد منه المسك والعنبر الورددا .
وإن فسح الرحمن في العمر برهة . فلا بد من حث المطية لا بددا .

ثم يتحول إلى ليلة الميلاد وما صادفت من حوادث لا تزال لصيقة بسيرته صلى الله عليه

وسلم

وفي ليلة الميلاد أكبر آية . تخر الجبال الراسيات له هدداً
أشادت بها الكهان قبل طلوعها . ومن هولها إيوان كسرى قد انهدا .
وعاجل بالإخماد نيران فارس . فلم يُر للنيران من بعدها وقدا .

ثم يلتفت إلى واجب المسلمين مع ذكرى المولد الشريف

حقيق علينا أن نحل لك الحى . ونقرئك منا البر والشكر والحمدا .
ونجعل فيها منك عيداً ومشهداً . نُشيع من الذكر الحكيم به شهدا .
ونخلع من أمداح أحمد حلة . عليك ومن منظوم آياته عقدا .

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ثم يخلص الشاعر إلى مدح السلطان أبي سالم يوسف المريني،

- وفينا سليل النصر يحفظ منك ما . أضيع ويلقى فيك بالبدرِ الوفدا .
أقام على حب النبي وآله . وأشرب تقوى ربه الحل والعقدا
أيوسفُ يا حامي الجزيرة حيث لا . نصيرُ، ومصلي بأسها الضمّر . الجردا
صدعت بأمر الله في جنباتها . فألبسك التقوى وقلدك العضدا .
ومثال آخر لهذا الضرب من القصائد التي يجمع فيها الشاعر بين المديح والمدح داليتيه

الطويلة أيضا، التي خصّ بها السلطان أبا سالم إبراهيم المريني¹.

- تألق نجديا فأذكرني نجدا . وهاج لي الشوق المبرح والوجد .
ومنها هذه الأبيات التي يذكر فيها فضل المولد
بمولدك اهتز الوجود وأشرفت . قصور ببصرى ضاءت الهضب والوهدا .
ومن رعبه الأوثان خرت مهابة . ومن هوله إيوان فارس قد هدا .
وضاء له الوادي وصبح عزه . بيوتا لنار الفرس أعدمها الوقدا .
لينتقل انتقال سلسا إلى مدح السلطان المغربي
رعى الله منها ليلة أطلع الهدى . على الأرض من آفاقها القمر السعدا .
وأقرضَ ملكا قام فينا بحققها . لقد أحرز الفخر المؤثل والمجدا .
ولله ما ذا خلفوا من خليفة . حوى الإرث عنهم والوصية والعهدا .
وقام بأمر الله يحمي حمى الهدى . فيكفي من استكفى ويعدي من استعدا .
إذا ما أراد الصعب أغرى بنيله . صدور العوالي والمطهمة الجردا .

3-2- مولديات ذاتية

وهناك بعض من مدائحه النبوية ما لم ترفع إلى أحد من السلاطين، أو قد يكون حذف الأبيات التي تذكرهم، مثل القصيدة التي مطلعها²:

هاجتك إذ جئت اللوى فزرودا ذكراك أوطاناً بها وعهودا

¹ - الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 237.

² - الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 239.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

حيث اقتصر على التعبير عن الحب والشوق إلى رسول (صلى الله عليه وسلم)، وعلى مديحه، وذكر معجزاته، التشفع به.. ومما جاء فيها:

يا مصطفى الرحمن والنور الذي .
المنتقى من سر هاشم في الذرا .
جيران بيت الله والعرب الألى .
أعلقت كفي منك حبل محبتي .
وجعلت مدحك للإله وسيلتي .
أخفى الضلال وأظهر التوحيد
حيث استقر مدى الفخار صعودا
أضحوا على قنن النجوم قعودا
لا واهنا خلقا ولا مجدودا .
فشربت في دار النعيم خلودا .

ومثل هذا النمط من القصائد قصيدته¹:

ملكت رسول الله رقي فمن يرح
فلا كان لي جفن لبعذك لم يصب
رجاؤك سؤلي كلما جرح الأسى
وقد كان في قلبي لبعذك قرحة
فكيف وقد رانت عليه ذنوبه
فضلت النبيئين الكرام مزية
وأوليتني الحظ الرغيب ومن يشرح
ولا كان لي قلب بقربك لم يفرح
ولا يستوي آسى الكلوم ومن يجرح
وفودي لم يشهب وسني لم يقرح
وإن أنا لم أضرح فويلي متى أضرح .
وكم بين رب اشرح وبين ألم نشرح

ونختم بنونية تنسب إليه، مطلعها²:

سل ما لسلمى بنار الهجر تكوييني
وفي منها تمنيت المني فغدى
وجبها في الحشا من قبل تكوييني
قلبي كئيبا ببلواه يناجيني

¹ - الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 158.

² - الدين بن الخطيب: الديوان، القصيدة رقم: 544.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ونختار أبياتاً تفيض رقة، وهو يطلب الشفاعة من رسول الله، ويكثر الصلاة عليه

يا خالق الخلق شفع في من
وكن مجيري من النيران يا املي
وصل رب على المختار ما
وصل رب على المختار ما
وصل رب على المختار ما
وصل رب على المختار
والف الف صلاة لا نفاذ لها
عليك ياخير خلق الله قاطبة

أخلاقه فتعالى في النبيي
لعل أحظى بأجر غير ممنون
قمريقة فوق افنان
حمائم فوق افنان
نويقة لحمى الاطلا
مباسم الزهر في
مضروبة في ثمان الف
والف الف سلام في

بعد هذه الرحلة في القصيدة المولدية الشعرية عند لسان الدين بن الخطيب، يمكن أن نلاحظ خاصية في بنية القصيدة، وهي: وفرة التنوع في الموضوعات والمعاني، والتمكن من صياغتها باللغة الكلاسيكية الشريفة، والميل إلى الصناعة البديعة، خاصة وأنه شيخ الكتاب في ديوان الإنشاء في البلاط الغرناطي، ثم في البلاط المريني، ذلك الذي انتبه إليها النقاد¹، وهذه الخاصة ليست مقصورة على شعره بل تتجلى في كل إنتاجه ولهذا نراه يعيد وييدي ويبدأ ويعيد في معان بعينها. ويرجع ذلك إلى توفد قريحته وسعة أفقه وإلى حياته المتنوعة الفياضة بمختلف الأحداث والمحن².

¹ - لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، ط.2، 1973،

² - لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2003، 1: 44.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

المبحث الثاني: المدائح النثرية

1- المدائح النبوية النثرية في التراث العربي

شاع عند أهل الأدب - حين يكون الكلام عن المديح النبوي - أنه فن من فنون الشعر الديني، يضطلع بتناول شخصية محمد ((صلى الله عليه وسلم)) الإنسان، وذلك بتعداد صفاته الخلقية والخلقية، وتناول شخصية محمد ((صلى الله عليه وسلم))، النبي والرسول، من خلال الإشادة بنبوءته ورسالته، أو استعراض صور التعلق النفسي والروحي بالمكان، من خلال الشوق لرؤيته، وزيارة قبره، والبقاع المقدسة التي ترتبط بحياته، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية، وتناول سيرته، وغزواته، والحديث عن مواقفه وشمائله، تقديرا له وتعظيما.

1-1- فكرة المدائح النبوية النثرية:

ولعلّ فكرة المدح التي تنطلق منها المدائح النبوية، وتنطلق منها المولديات خاصة، هي التي تقيّد هذا الفن ضمن فنون الشعر لا فنون النثر، إذ المدح - في التراث الأدبي العربي - هو غرض من الأغراض الشعرية الذاتية، مثله مثل غرض الرثاء أو الفخر أو الغزل..، وكأنّ هذه الأغراض لا تستقيم إلاّ إذا جاءت وفق قالب الشعري، وتحت سلطة الوزن والقافية، ذلك الذي تعودّه المتلقي العربي عند تناول المديح النبوي، وأن ما يأتي من المديح عن طريق النثر، إنّما هو ضرب من التقريرية المباشرة، التي تقتضيها الوظيفة التربوية والتعليمية التي أوكلت إلى كتاب "السيرة النبوية"، عامة، وكتاب "الشمائل المحمدية" على وجه الخصوص.

لقد حفل التراث الأدبي العربي، عبر أطواره التاريخية، بنماذج شعرية خالدة تتناول شخصية الرسول ((صلى الله عليه وسلم))، نجد ذلك:

(قبيل الدعوة النبوية): مثل ما قاله عمّه: (العباس بن عبد المطلب)، من شعر عند ولادة الرسول الكريم، أو ما ينسب من شعر إلى عمه (أبي طالب)، خاصة لاميته المشهورة،
(أثناء الدعوة المحمدية): مثل ما أثر عن شعراء عاصروا النبي الكريم من أمثال الأعشى،
وكعب بن زهير، أو من شعراء الرسول الرسميين، الذين انتدبهم النبي الكريم للدفاع عن الإسلام،
من أمثال: (حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن أبي رباح)،

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

(بعد الدعوة المحمدية): كتلك الأشعار التي قاله شعراء ما بعد الإسلام، كشعراء العصر الأموي، ممن مجدوا سيرة النبي الكريم، من العلويين أو المتشيعين لآل البيت، أو ممن تعلّق قلبه ووجدانه بحب النبي من العباد، والزهاد والمتصوّفة، حين يكون المديح النبوي جزءاً لا يتجزأ من شعرهم.

غير أن تطوّر الأفكار الدينية، بعد الإسلام، خاصة ما ارتبط بالصراعات الدينية الداخلية: السياسية، والمذهبية، والفكرية، أو الصراعات الدينية الخارجية: كالصراع الإسلامي المسيحي، والحروب الصليبية، أو الصراعات الاجتماعية والأخلاقية في العالم الإسلامي، التي عكسها النظام الطبقي الاستبدادي، فأوجد تيارات فكرية واضحة المعالم، كتيار الزهد في واجه تيار العبث والجنون، في عصر بني العباس، أو ما تسرّب من تصوّف الأمم التي وصلها المد الإسلامي، كالتصوّف الشرقي (الهندي والصيني)، والرهبانية النصرانية، والأفكار الوثنية الفارسية التي فتحت المجال واسعا أمام تطور النثر الديني سواء أكان تأليفاً حال كتب السيرة النبوية، أم إبداعاً، حال كتابات متصوّفة الإسلام، الذين، من خلالهم، تطوّرت المدائح النبوية، وتأسّلت "المولديات" شعراً ونثراً.

1-1-1 - نماذج من المدائح النثرية الأولى:

ويمكن لنا أن نستشهد، على المدائح النبوية النثرية، بما جاء من تلك النصوص التي تناولت أوصاف الرسول ((صلى الله عليه وسلم))، في العهد الإسلامي الأول، مثل وصف "أمّ معبد الخزاعية" للنبي ((صلى الله عليه وسلم))، أثناء خروجه من مكة مهاجراً مع أبي بكر الصديق، أو وصف "علي بن أبي طالبه ((كرم الله وجهه))، أو وصف "أنس بن مالك" ((رضي الله عنه)).

مثال: وصف علي بن أبي طالب:

ويصف سيدنا علي بن أبي طالب رسول الله ((صلى الله عليه وسلم))، فيقول:
"لم يكن بالطويل الممّط (الشديد الطول)، ولا القصير المتردّد (المجتمع المنقبض عن قصر)، وكان ربّعة (ليس بالطويل ولا بالقصير) من القوم، ولم يكن بالجعد القطط (الشعر الملتف القصير)، ولا السبط (الشعر المسترسل)، ولم يكن بالمطهّم (المنتفخ الوجه)، ولا المكثّم (المستدير الوجه)، وكان أبيض مشرباً (أبيض الوجه مائل إلى الحمرة)، أدعج العينين (سواد العين مع اتساعها)، أهدب الأشفار (طويل الأشفار)، جليل الكتد (بارز المنكبين)، دقيق المسربة (قليل الشعر الذي

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

يصل الصدر بالسرة)، شين الكفين والقدمين (غليظ أصابع الكفين والقدمين)، إذا مشى تقلع (مشى بقوة وحزم)، كأنما يمشي في صلب (في منحدر)، وإذا التفت، التفت معا (التفت بكامل جسمه لا برأسه)، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو أجود الناس كفا (سخاءً)، وأجرأ الناس صدرا (شجاعة)، وأصدق الناس لهجة (حديثاً)، وأوفى الناس ذمة (عهداً)، وألينهم عريكة (سهل الخلق)، وأكرمهم عشرة (كريم المعاشرة)، من رآه بديهة (أول مرة)، هابه، ومن خالطه، أحبه، يقول ناعته (واصفه): لم أر قبله ولا بعده مثله، صلى الله عليه وسلم¹.

إن المتأمل في هذه الأوصاف، والنوع التي حرص الوصّافون (الإمام علي)، على تأكيدها في شخص الرسول الكريم، لتعكس عمق المسؤولية الدينية التي اضطلع بها هؤلاء، بالنظر إليها من باب الوظيفة الدعوية، بل الدعائية - أيضاً - حين يكون الكلام عن شخصيته ((صلى الله عليه وسلم))، إذا استثنينا منها ملكة الوصف عند أمّ معبد - وهي شهادة امرأة جبلت على التقاط الجزئيات والدقائق من المشاهدات والمبصرات المادية (الخلقية)، إذا ما قيست بالرجل وفطرته على التقاط الكليات، أو الميل إلى الأوصاف المعنوية (الخلقية)

1-2- أَمْطَاتُ الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ النَّثْرِيَّةِ فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ:

قبل الكلام عن المولديات النثرية، في البلاد الأندلسية والمغربية، يحسن بنا أن نقدم صورة عن النثر الأندلسي، الذي حظي بمكانة متميزة في تراث العصر فقد نafs النثر في الغرب الإسلامي (الأندلس والمغرب) الشعر في مقاصده ووظيفته، حيث تحوّل من تعبير نثري فني يتبادله الكتاب فيما بينهم، إلى تعبير تحدّدت مقاصده، ووظائفه مع أجهزة الدولة، ونظمها الإدارية، مع أبرع الكتاب في دواوين الإنشاء، ثم ينضج شكله من حيث درجة التصوير الفني، والتأثّق الزخرفي، لتبرز فنون النثر قوية مكتملة خاصة تلك التي تدعو إليها الحاجة مثل الخطب والرسائل أو ما يقتضيها العلم والأدب والفن كالرسائل العلمية والفلسفية، والأدبية والنقدية، التي كانت أهم وسيلة في تواصل علماء الغرب الإسلامي وكتابه وشعرائه مع المشاركة، في مصر والشام والعراق.

¹ - ينظر: محمد بن سورة الترميذي: الشمائل المحمدية، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط.3، 1988، ص: 10، 11.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

خلال القرن الثامن الهجري، وفي عهد (بني الأحمر) تحديداً، أخذ النشر يشق طريقه نحو النضج، لتتحدّد ميزاته الفنية الخاصة، من حيث التصوير البياني، والصناعة البديعية. وقد نبغ العديد من كتاب العصر، منهم: أبو بكر الرندي، وابن خاتمة الأنصاري، وابن جياب، ولسان الدين بن الخطيب، الذي نهض بفن الكتابة الديوانية، وبرع فيها، ليشتهر في بلاد المشرق، بعدما روج له مؤرخ الأدب الأندلسي المغربي، صاحب "نفح الطيب"، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني.

برز ابن الخطيب في النشر الوزاري والسياسي، وترك لنا تراثاً ضخماً من المراسيم السلطانية التي صدرت أيام توليه الوزارة، في الأندلس والمغرب، وقد تولى تقييدها بنفسه، وإعادة استنساخ ما ضاع منها بطريقة ذكية مختصرة، يشهد عليها كتابه "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب"¹.

وسوف يظهر ضرب من أدب الرسالة، توجه فيها أصحابها توجهاً دينياً، وارتبط موضوعه بالحج، وزيارة البقاع المقدسة، والاحتفاء بالروضة الشريفة. فكانت هذه الرسائل من ابتداعات الأندلسيين، وجزءاً من بناء نصوص المدائح النبوية

1-2-1- رسائل الحجاز:

تعد رسائل الشوق الديني إلى الأماكن المقدسة، وأرسالها مع زوار بيت الله الحرام من الظواهر الأدبية التي شاعت عند الأندلسيين والمغاربة منذ القرن الخامس الهجري لدرجة أنّها أصبحت تقليداً عند مسلمي الغرب الإسلامي².

لقد غدا نوع من الرسائل الثرية الموجهة إلى قبر النبي سلوكاً أدبياً شائعاً أثناء مواسم الحج. وقد تعزى بدايات هذا الأدب إلى الوزير الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدي الشيبلي (ت. 515هـ) الذي كان أول من حمّل، على لسان حاج قاصد البيت الحرام رسالة شوق وحنين، وتوسّل وتشفّع، فاتحاً المجال للرسالة المكتوبة إلى الروضة الشريفة، وقد كان لرواج التصوّف دور في اعتقاد الناس بجدوى هذه الرسائل ويقين الاستجابة لها.

¹ - لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2003، 1: 44.

² - فايز القيسي: الوجد والشوق الديني إلى زيارة الأماكن المقدسة في نشر لسان الدين بن الخطيب (قراءة في المكونات والأبعاد)، عن: لسان الدين بن الخطيب (مجدّد فكر التسامح وحوار الثقافات) محمد مزين/ العياشي السنوسي، أعمال الندوة الدولية (الأيبيسكو)، ومؤسسة ابن الخطيب، 15-16 نوفمبر 2013، المؤسسة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (أبيسيكو)، الرباط، 2017.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ولقد كانت أحوال المسلمين منذ القرن السادس الهجري تسير إلى الضعف والتدهور، وتكالب الممالك المسيحية الأوروبية على انتزاع المدن الإسلامية الأندلسية واحدة، واحدة، والقيام بالمجازر الفظيعة انتقاماً وحقداً، أو تخويفاً وترهيباً، وربما كان لهذه الرسائل مفعولها النفسي عند المسلمين حين .. كانوا يبثون شجونهم ويفرغون همومهم في هذه الرسائل التي يتوسلون بها إلى الرسول الكريم ويستمدون بها العون منه..¹ .

وقد نقل إلينا أحمد المقري في "أزهار الرياض" رسائل حجازية كتبها ابن أبي الخصال (ت. 540)، والقاضي عياض (ت. 544)، وللسان الدين بن الخطيب²، كما أورد محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي، في كتاب الذيل والتكملة، رسالة حجازية لأبي الحسن الجياني³ .

1-2-1- نماذج من رسائل الحجاز

نموذج 1: رسالة ابن أبي الخصال (ت. 540)،

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله..

إلى الرؤوف الرحيم، الرسول الكريم، ذي الخلق العظيم، والحسب العميم، والصفح الجميل.. الذي سلم عليه الحجر، والتم إليه الشجر، وانشق لبرهانه القمر.. أبو القاسم خير الخير، وسيد البشر، المصطفى من أكرم العتر

كتبته، يا واضع الأصر والأغلال، ورافع رايات الهدى على الضلال ومبدلنا بالظل من الحرور، ومخرجنا من الظلمات إلى النور.. عن دمع يسفح، ونفس يلفح، وصدر بأشواقه يطفح.. وأسف إليك يلتهب،

¹ - محمود علي مكي: المدائح النبوية، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، الجيزة - مصر، ط.1، 1991، ص: 123.

² - ينظر: أحمد المقري التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: سعيد أحمد أعراب، محمد بن تاويت، صندوق أحياء التراث الإسلامي، اللجنة المشتركة - المغرب/ الإمارات، (1978)، 4: 11.

³ - كما ينظر: محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس/ محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط.1، 2012، 3: 244.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

اللهم، كما جعلتني من أمته، واستعملتني بسنته.. وشوقتي إلى آثاره، وشغلت قلبي بتذكرة وتذكاره، وأريتني تلك المعالم المنيفة خيالاً، وخططت منها في الضمير مثلاً، وأريتنيها ملء السمع والفؤاد جمالاً، فاشف بمرآها بصراً ضريراً، وبسناها يرتد بصيراً.. فلم أملك يا رسول الله إلا رقعة تشكو بث التباريح، وتحية خفيفة المحمل طيبة الريح..

فأتوسّل بك - يا رسول الله - إلى مصطفيك بالرسالة والوسيلة، ومختصك بالدرجة الرفيعة والفضيلة.. ليسعدني بجوارك، ويكرمني بحلول دار هجرتك وأنصارك..¹

نموذج 2: رسالة القاضي عياض (ت. 544)

".. إلى سيد ولد آدم، الرسول الكريم، الرؤف الرحيم، طي الخلق العظيم، والفضل الباهر الجسيم، ودعوة أبيه إبراهيم، وبشرى المسيح، وابن الذبيح ابن الذبيح.. الصادق الأمين، الحق المين، المطاع عند ذي العرش المكين، نبي الرحمة، وهادي الأمة،..

حبيب الله وخليله، المنتخب من خيار الأخيار، وصميم الحسب النضار، الطاهر المطهر المختار، أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، منتهى الشرف ومنقطع الفخار. من الشائق إلى زيارته، الراجي في دعوته المدخرة في شفاعته، المؤمن بنبوءته ورسالته، المعترف بتقصيره في طاعة الله وطاعته، عياض بن موسى..

وبعد: فأني كتبت إليك، صلى الله عليك، يا خاتم الرسل، وهادي أوضح السبل.. شارح القلوب والصدور، ومخرجها من الظلمات إلى النور.

فيا محمداه، طال شوقي إلى لقائك، ويا أحمداه، ما كان أسعدني لو متع المسلمون ببقائك، ويا نبياه،.. اذكرني عند ربك، في مقامك الحمود الكريم، ويا شفيعاه، اشفع لي ولوالدي في ذلك الموقف العظيم..²

¹ - ينظر: أحمد المقرئ التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: سعيد أحمد أعراب، محمد بن تاويت، صندوق أحياء التراث الإسلامي، اللجنة المشتركة - المغرب/ الإمارات، (1978)، 4: 20-29.

² - ينظر: أحمد المقرئ التلمساني: أزهار الرياض، 4: 11.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

نموذج 3: أبو الحسن الجياني (663هـ):

".. إلى سيد المرسلين، ورسول رب العالمين، الذي جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وكان، ولم يزل، متنقلاً من صلب آدم نورا، من يلحاً إليه يوم الفزع الأكبر النبيون، ويرجو مذخور شفاعته في غد المسيون، ذؤابة بني هاشم كتبه، وأنا أتفسد الصعداء، وأناجي - بل أعبط - أهل زيارتك السعداء... ليت شعري، ما يسكن هذا الشوق المثار، وهل أعفّر وجناتي في تلك المشاهد الكريمة والآثار، قسما يا ذا الخلق القويم، بمقامك الأعظم، إن حبك قد تخللّ وسرى في الأعظم، اللهم يا رب، فأبجد عبدك المسيء، وأعنه على أداء الفريضة..¹

1-2-2- قصص المولد:

شاع هذا الشكل الفني منذ القرن الخامس الهجري، ليقابل القصيدة المولدية، ولعلّ أشهرها: كتاب: (وسيلة المتوسلين في الصلاة على سيّد المرسلين)، الذي ظهر أواخر القرن الثامن لصاحبه، لصاحبه العارف بالله: بركات محمد العروسي القسنطيني*، ويعرف بكتاب "المجالس"، إذ يجوي (24) "أربعة وعشرون" مجلساً للذكر، جمع فيها بين الشعر والنثر، وأضاف إليها الشيخ العارف بالله: محمد بن عزوز البرجي البسكري، مجلسين اثنين. من مؤلفاته: كتاب "مفتاح الإشارة في فضائل الزيارة"، وكتاب "وسيلة المتوسلين بفضل الصلاة على سيد المرسلين"، وكتاب "تذكرة الغافل وتبصرة الجاهل"².

¹ - ينظر: محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: إحسان عباس/ محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط. 1، 2012، 3: 242 - 246

* هو العارف بالله بركات محمد العروسي القسنطيني (781هـ - 897هـ = 1379م - 1492م). فقيه، متصوف، وشاعر أديب من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، قضى حياته كلها في الزهد والعبادة ومجاهدة النفس، وكان شيخاً عارفاً بالله. ولد ونشأ في نواحي بسكرة، في عصر كثر فيه الصالحون والمتصوفة، ثم انتقل إلى قسنطينة، فقضى حياته كاتباً لدى حاكمها وواليتها، وفيها ألف كتاب "وسيلة المتوسلين"، نظم العديد من القصائد والمدائح النبوية الشريفة وكتب في المواعظ وتنبه الغافلين.

² - ينظر: كتاب فهرست معلمة التراث الجزائري بين القدم والحديث، للشيخ بشير ضيف بن أبي بكر بن البشير بن عمر الجزائري، دار ثالة للنشر، الجزائر، ط الثانية، 2007م، ص: 222.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

1-2-2-1- نموذج من قصص المولد:

ومثل هذا التأليف، نجد مع "مولد البرزنجي**"، وهو كتاب يتناول حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) نثراً ونظماً. وقد تعامل المؤلف مع الجزء المنثور تعاملًا شعرياً، من خلال عرض المادة القصصية في عبارتين مسجوعتين، مثلنا بنية البيت الشعري، وقافيته، حيث التزم المؤلف، في العبارة الأولى، بروي التاء المربوطة المهملة (تنطق هاءً)، وفي العبارة الثانية روي الهاء. وقسم النص إلى مشاهد، ينتهي كل مشهد بلازمة تتكرر بعد كل مقطع. ويمكن أن نقدم نموذجاً لقصّة المولد بالمشهد الذي يصف فيه جانب الخَلقة في الرسول الكريم¹:

نموذج 1: البرزنجية

عطر اللهم روضه الشريف بعرف شذي من صلاة وتسليم
وكان (صلى الله عليه وسلم) أكملَ النَّاسِ خَلْقاً وَخُلُقاً، ذا ذاتٍ وَصِفَاتٍ سَيِّئَةٍ
مَرْبُوعَ الْقَامَةِ، أبيضَ اللّوْنِ، مُشْرَباً بِحُمْرَةٍ، واسعَ العَيْنَيْنِ، أَكْحَلَهُمَا، أَهْدَبَ الْأَشْفَارِ، قَدْ
مُنِحَ الزَّجَجَ حَاجِبَاهُ
مُفْلَجَ الْأَسْنَانِ، واسعَ الفَمِ، حَسَنَهُ، واسعَ الجَبِينِ، ذا جَبْهَةٍ هِلَالِيَّةٍ
سَهْلَ الخَدَّيْنِ، يُرى في أَنْفِهِ بَعْضُ أَحْدِيَابِ، حَسَنَ العِرْتَيْنِ، أَقْنَاهُ
بَعِيدَ ما بَيْنَ المُنْكَيَيْنِ، سَبَطَ الكَتِفَيْنِ، ضَخَمَ الكَرَاديسَ، قليلَ لحمِ العَقِبِ، كَثَّ اللِّحْيَةَ،
عَظِيمَ الرَّأْسِ، شَعْرُهُ إلى الشَّحْمَةِ الْأُذُنِيَّةِ
وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ؛ قد عمّه النُّورُ، وعلاه
عطر اللهم روضه الشريف بعرف شذي من صلاة وتسليم²

** هو جعفر بن حسن بن عبد الكريم البرزنجي الحسيني المدني الشافعي. ولد في المدينة المنورة سنة 1126هـ، وترى في أسرة تشتهر بالعلم والفضل. تلقى علومه ومعارفه بالمدينة، وبرع في الخطب والترسل. ثم صار إماماً وخطيباً ومدرساً في المسجد النبوي الشريف، ومفتي الشافعية في المدينة. له مؤلفات، منها: قصة المولد النبوي، المعروفة بمولد البرزنجي، وقصة المعراج، ورسالة في أسماء البدرين والأحدين، وكانت وفاته سنة 1177هـ في المدينة المنورة

¹ - ينظر: جعفر بن حسن البرزنجي: مولد البرزنجي، تح: بسام محمد بارود، ط.1، 2008، ص: 122.

² - ينظر: مبارك (زكي مبارك): المدايح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت (1935).

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

2- المدائح النبوية الثرية عند ابن الخطيب

أخذ نوع من المدائح النبوية تتكاثر في الأندلس حين اشتد الضعف بدولة الموحدين، وأخذت المدن الأندلسية الكبيرة تسقط مدينة وراء مدينة لتقع في قبضة الإسبان، والتحالف المسيحي، إذ اتخذ الشعراء الأندلسيين أداة للاستغاثة، والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محتهم، وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية، فقط، بل يرفقونها برسائل إلى القبر النبوي الشريف، واصفين ما يعانیه وطنهم من محن خطيرة¹.

إن من أبرز المظاهر التواصلية في الرسائل الديوانية - منذ أن استحدثه الحكام والسلاطين في نظمهم - ظاهرة الكتابة للسلطان، إذ لم يعد الحكام يستطيعون أن يكتبوا رسائلهم بأنفسهم، لأسباب عدة لعل من أهمها:

- عدم قدرة الحاكم عن الاستجابة لكل المراسلات، لاتساع الرقعة الجغرافية، وتشعب سياسة هذه الأمصار المترامية الأطراف.

- عجز الحكام عن كتابة الرسالة لعجمة بعضهم، حال سلاطين المماليك والأتراك.

- الشعور بضعف التعبير، كون الرسالة تتجاوز البعد الإبلاغي التواصلية، إلى البعد البلاغي الفني.

ومن هنا، أوكل أمر كتابة الرسائل الديوانية لكتاب مهرة، منهم الأدباء ومنهم الشعراء. غير أن هذه الوكالة في كتابة الترسيل قد تتجاوز الإطار الرسمي (حال الرسالة الديوانية)، إلى إطار شخصي، حين يكلف الكتاب بكتابة الرسائل الخاصة، مما يقتضي من الكاتب أن يكون جزءاً من شخصية من كلفه بالكتابة، مدركاً لأفكاره، وعواطفه، ومزاجه.

وفي هذا النوع، تدخل رسالتا ابن الخطيب الحجازيتان، اللتان كتبتهما على لسان السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف بن نصر، وابنه السلطان محمد بن نصر (الغني بالله)

¹ - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس)، دار المعارف، القاهرة، ط. 11، 2017، 8: 371.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

2-1-1 رسالتا ابن الخطيب النشريتان:

كتب ابن الخطيب للروضة النبوية الشريفة رسالتين عن السلطانين أبي الحجاج يوسف، وابنه الغني بالله أبي عبد الله محمد بن السلطان ابن نصر، والذي قد يهمننا في دراستهما هو التعرف عن هذا النوع من المولوديات النثرية بوصفها رسائل لها خصائصها الفكرية والفنية¹.

2-1-1-1 رسالة أبي الحجاج يوسف بن نصر:

يبدأ ابن الخطيب رسالته بأبيات شعرية في مدح النبي مستفتحا منه القصيدة بمقدمة طليية غزلية - على طريقة المشاركة في استفتاحهم - فيقول في مطلعها²:

إذا فاتني ظل الحمى ونعيمه . فحسب فؤادي أن يهب نسيمه .

ومن خلال هذه الرسالة الشعرية، انطلق الكاتب يعبر عن حنينه واشتياقه للديار المقدسة، متحدثا عن تباير الشوق، وعن ريح الصبا وما تهيجه من ذكرى وما تبعته من مشاعر الشوق والجوى، ثم ينتقل الى مدح رسول الله وتعداد صفاته وخصاله الحميدة، طالبا منه العون والشفاعة وأنه هو الملاذ يوم العرض، ثم ينهي ويختتم هذه الأبيات بالصلاة والسلام على الرسول الله. بعدها ينتقل إلى مضمون الرسالة النثرية التي عبر فيها بألفاظ مسجوعة عن أخلاق الرسول وصفاته وأنه رسول الحق وخاتم الأنبياء وشفيع الخلق، وأنه مخرج الناس من الظلمات إلى النور، ذاكرا كذلك معجزاته، وأنه الهدى، وحامل القرآن الكريم، ليستمر (ابن الخطيب) في رسالته، طالبا الشفاعة والغوث يوم العرض إلى أن يصل في آخر رسالته فيوجه التحية والصلاة والسلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الكرام.

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ربحانة الكتاب وتلعة المنتاب، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.1، 1981. المجلد الأول. ينظر:

الرسالة الأولى، ص: 55، وما بعدها، والرسالة الثانية، ص: 62، وما بعدها.

² - ينظر إلى نص الرسالة الشعرية في المبحث الأول من الفصل الثاني من هذه الرسالة.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

2-1-1-1- بنية مضمون الرسالة:

جاءت على طريقة افتتاحيات الرسائل الرسمية، بتحديد طرفي الترسُّل (المرسل والمرسل إليه).

ولما كانت هذه مقدمة الافتتاح تتعلّق بالجناب النبوي، فإن المرسل (وهو الكاتب النائب عن السلطان الغرناطي: لسان الدين بن الخطيب)، سيقدم المرسل إليه على المرسل تشريفاً لمقامه، وسيحشد سيلاً من الأوصاف المرتبطة به (صلى الله عليه وسلم)، مستعرضاً كل مقولات التعظيم والإجلال لشخص الرسول الأعظم أو المرتبطة بالرسالة الحمديّة. وهي مقدمة طويلة يقول الكاتب:

"إلى رسول الحقّ، إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق، الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، من وجبت له النبوة، وآدم بين الطين والماء، شفيع أرباب الذنوب، وطبيب أدواء القلوب، ووسيلة الخلق إلى عالم الغيوب، نبي الهدى، الذي طهر قلبه، وغفر ذنبه، وختم به الرسالة ربه، وجرى في النفوس مجرى الانفاس حبه، الشفيع، المشفّع يوم العرض، المحمود في ملأ السماء والأرض، صاحب اللواء المنشور، يوم النشور، والمؤمن على سر الكتاب المسطور، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور،.."¹

وبعد هذا الإسهاب المطول في عرض أوصاف الرسالة النبوية، يصل إلى ذكر اسم المرسل إليه، دون أن يتوقف عن الوصف الممجّد:

"... سيد الرسل، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الذي فاز بطاعته المحسنون، واستنقذ بشفاعته المذنبون، وسعد باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، صلى الله عليه وسلم، ما لمع برق، وهمع ودق، وطلعت شمس، ونسخ اليوم أمس.."²

¹ - لسان الدين بن الخطيب: رجحانة الكتاب وئجعة المتتاب، 1: 57. 58.

² - المصدر نفسه، 1: 58

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ثم ينتقل كاتب الرسالة (ابن الخطيب، النائب عن السلطان الغرناطي) إلى تحديد شخص المرسل، وسوف يسلك ما سلكه مع المرسل، مستعرضاً كل أوصاف الطاعة والتوسل للرسول الأعظم، فيقول:

"... من عتيق شفاعته، وعبد طاعته، المعتصم بسببه، المومن بالله ثم به، المستشفى بذكره كلما تألم، المفتوح بالصلاة عليه كلما تكلم، الذي إن ذكر، تمثل طلوعه بين أصحابه وآله، وإن هبّ النسيم العاطر، وجد فيه طيب خلاله، وإن سمع الأذان، تذكر صوت بلاله، وإن ذكر القرآن، استشعر تردّد جبريل بين معاهده وخلاله، لا ثم تربه، ومؤمل قربه، ورهين طاعته وحبّه، المتوسل به إلى رضى الله ربه، يوسف بن اسماعيل بن نصر.."¹

ثم ينتقل إلى عرض حال المرسل إليه، تمهيداً للدخول في موضوع الرسالة، مستعرضاً الحالة النفسية (الروحية) للمرسل، وهي جملة المشاعر التي يحملها كل مسلم، مهما كانت درجته الاجتماعية إلى رسول الله، خاصة أنّها مرتبطة بمسلم يسكن بلاد الغرب الإسلامي (الأندلس)، البعيدة عن أرض الحجاز، وعن مكة المكرمة، والمدينة المنورة. مبدئياً شوقه الشديد إلى زيارة قبره الشريف. يقول الكاتب:

".. كتبه اليك، يا رسول الله، والدمع ماح، وخيل الوجد ذات جهاح، عن شوق يزداد، كلما نقص الصبر، وانكسار لا يتاح له إلاّ بدنو مزارك الجبر، وكيف لا يعيي مشوقك الأمر، وتوطأ على كبده الجمر، وقد مطلت الأيام بالقدوم على تربتك المقدسة اللحد، ووعدت الآمال ودانت بإخلاف الوعد، وانصرفت الرفاق والعين بنور، ضريحك ما اكتحلت، والركائب اليك ما رحلت، والعزائم قالت، وما فعلت، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تسرح، وطيور الآمال عن وكور العجز لم تبرح، فيا لها من معاهد فاز من حيّاها، ومشاهد ما أعطر رباها، وبلاد نيّطت بها عليك التمام، وأشرقت بنورك منها النجود والتهائم، ونزل في حجرهما عليك الملك، وانجلي بضياء فرقانك فيها الحلّك، مدارس الآيات والسور، ومطالع

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب، 1: 58.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

المعجزات السافرة الغرر، بحيث قضيت الفروض وختمت، وافتتحت بسورة الوحي وختمت، وابتدئت الملة الحنيفة وتمت، ونسخت الآيات وأحكمت! أما والذي بعثك بالحق هاديا، وأطلعك للخلق نورا باديا، لا يطفئ غلتي إلا شربك، ولا يسكن لوعتي إلا قربكم، فما أسعد من أفاض من حرم الله الى حرمك، وأصبح بعد أداء ما فرضت عن الله ضيف كرمك، وعفّر الخدّ في معاهدك ومعاهد أسرتك، وتردّد ما بين داريّ بعثتك وهجرتك...¹

ثم ينتقل كاتب الرسالة إلى ذكر مانع المرسل من قصد البقاع المقدسة حاجا معتمرا، وزيارة الروضة الشريفة حبا وشوقا وطاعة وامتتالا، وهو انشغاله بجهاد أعداء الدين، في بلاد الأندلس، والدفاع عن حرمة البلاد الإسلامية من التوسع الصليبي. يقول:

".. وإني، لما عاقتني عن زيارتك العوائق - وإن كان شغلي عنك بك - وعدتني الأعداء فيك عن وصل سبي بسبيك، وأصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه، وعدو تتكاثف أفواجه، أو يحجب الشمس عند الظهيرة عجابه، في طائفة من المؤمنين بك؛ وطنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكّل على الله وعليك لبوسهم، ورفعوا إلى مصارختك رؤوسهم، واستعذبوا في مرضاة الله، ومرضاتك بؤسهم، يطيطون من هيعة إلى أخرى، ويلتفتون، والمخاوف عن يميني ويسرى، ويقارعون، وهم الفئة القليلة، جموعا كجموع قيصر وكسرى، لا يبلغون من عدو - هو الذرّ عند انتشاره - عشر معشاره، قد باعوا من الله الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله هي العليا.."²

ولم يفوت كاتب الرسالة الفرصة (ابن الخطيب النائب عن السلطان)، ليتحول من كاتب رسالة إلى مؤرخ لأحداث عصره، وهو الذي يمثل في أدب الرسائل الديوانية (السلطانية) رسائل "البشارات"، حين تذييع الرسالة أمرا يتعلق بأخبار الدولة، كالكلام عن الغزو، أو التبشير بانتصار

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب، 1: 59.

² - المصدر نفسه، 1: 59، 60.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

الجيش من الحرب.. وهذا الذي سلكه ابن الخطيب في رسالته، حين نقل إلى رسول الله واقع المسلمين في زمانهم، والحال التي وصلوا إليها في حروبهم مع النصار الصليبيين.

".. فيا له من سرب مرُوع، وصريخ إلاّ منك ممنوع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصبية حمر الحواصل، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل، والصليب قد تمطى، فمدّ ذراعيه، ورفعت الأطماع بضبعيه، وقد حجبت بالقتام السماء، وتلاطمت أمواج الحديد، والبأس الشديد، فالتقى الماء، ولم يبق إلاّ الدماء، وعلى ذلك، فما ضعفت البصائر، ولا ساءت الظنون، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب، حتى تكاد تشاهده العيون، إلى أن نلتاك غدا - إن شاء الله -، وقد أبلينا العذر، وأرغمنا الكفر، وأعملنا في سبيل الله وسبيلك البيض والسمر".¹

ثم يتكلم الكاتب على لسان المرسل، عن أمر سألته، وأنه كتبها لتكون رسالته رسوله إلى رسول الله، ولسان حاله التي تنطق بما يحمله من شوق وحزن على عدم قدومه إليه، وتوسّل وتضرع ليغيثه ويرحمه، وينصره على أعدائه.

".. استنبت رقعتي هذه لتطير إليك من شوقي بجناح خافق، وتسعد من نيتي، التي تصحبها برفيق موافق، فتؤدي عن عبدك وتبلغ، وتعفرّ الخدّ في تربك وتمرغ، وتطيب برياً معاهدك الطاهرة ويوتك، وتقف وقوف الخضوع والخشوع تجاه تابوتك، وتقول بلسان التملّق، عند التشبث بأسبابك والتعلّق، منكسرة الطرف، حذراً بهرجها من عدم الصرف: يا غياث الأمة، وغمام الرحمة، ارحم غربتي وانقطاعي، وتغمد - بطولك - قصر باعي، وقوّ على هيبتك خور طباعي، فكم جزت من لج مهول، وجبت من حزون وسهول، فقابل بالقبول نيابتي، وعجل بالرضا إجابتي. ومعلوم من كمال تلك الشيم، وسجايا تلك الديم، أن لا يخيب قصدٌ من حطّ بفنائها، ولا يظماً وارداً أكب على آنائها.."²

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب، 1: 60.

² - المصدر نفسه، 1: 61.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ويستمرّ في التعبير عن شوقه وحينه إلى الروضة الشريفة، التماس شفاعته.

".. اللهم، يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى، وآخراهم بالصورة، وأعطيته لواء الحمد، يسير آدم، فمن دونه، تحت ظلاله المنشورة، وملكت أمته ما زوي له من زوايا البسيطة المعمورة، وجعلتني من أمته المجلولة على حبه المنظورة، وشوقتني الى معاهده المبرورة، ومشاهده المزورة، ووكلت لساني بالصلاة عليه، وقلبي بالحنين إليه، ورغبتني بالتماس ما لديه، فلا تقطع عنه أسبابي، ولا تحرمني في حبه أجر ثوابي، وتداركني بشفاعته يوم أخذ كتابي.."¹.

ولا يغفل المرسل أثناء التماس الشفاعة من هول يوم يقوم فيه الناس لرب العالمين، أن يتشفّع بأحد الصحابة الذي ينتسب إليه، وهو سيدنا (سعد بن عباد*)، لعلّه ينال بركة صحبته لرسول الله.

".. هذه، يا رسول الله، وسيلة من بعدت داره، وشط مزاره، ولم يجعل بيده اختياره، فإن لم تكن للقبول أهلا، فأنت للإغضاء والسماح أهل، وإن كانت ألفاظها وعره، فجنابك للقاصدين سهل، وإن كان الحب يتوارث - كما أخبرت - والعروق تدس - حسبما إليه أشرت - فلي بانتسابي إلى (سعد) عميد أنصارك مزية، ووسيلة أثيرة حفيّه، وإن لم يكن لي عمل أرتضيه، فلي نية، فلا تنسني.."².

بل يتوسل بعباده الصالحين من أمته الذين يسكنون الأندلس، وأنه قام ليدافع عنهم، متحملا لمسؤولية الرعية، ومسؤولية الدفاع عن حرمة الدين من كيد الطامعين:

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب، 1: 61.

* هو الصحابي الجليل سعد بن الخزرجي الأنصاري الساعدي، سيد بني ساعدة، اشتهر بالجوهر والوجهة، كان صاحب راية الأنصار في كلّ حروب النبي. اشتهر بالجود حتى إنّه كان يهدي رسول الله عليه الصلاة والسلام حفنة فيها ثريد اللحم، فكانت تلك الحفنة تدور مع النبي الكريم في بيوت أزواجه. وهو صاحب المقولة الشهيرة يوم بدر: "والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكباد الإبل الغماد لفعلنا توفّي - رضي الله عنه - في 13 للهجرة، بحوران من أرض الشام.

² - المصدر نفسه، 1: 61.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

".. ومن بهذه الجزيرة المفتحة بسيف كلمتك، على أيدي خيار أمتك، فإثما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك، فنعوذ بوجه ربك من إغفالك، ونستنشق من ريح عنايتك نفحة، ونرتقب من محيا قبولك لحة، ندافع بها عدوا طغى وبغي، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغي، فمواقف التمحيص قد أعيت من كتب وورّخ، والبحر قد أصمت من استصرخ، والطاغية في العدوان مستبصر، والعدو محلق، والولي مقصر، وبجاهك ندفع ما لا نطيق، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق، فلا تفردنا ولا تهملنا، وناد ربك فينا: "ربنا ولا تحملنا.."، وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم، وربك يقول لك، وقوله الحق: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم»¹.

ثم يختم رسالته بالصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه المقربين وخلفائه:

".. والصلاة والسلام عليك يا خير من طاف وسعى، وأجاب داعيا إذا دعا، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك، صلاة تليق بجلالك، وتحقّ لكمالك، وعلى ضجيعيك، وصدقيك، وحببيك، ورفيقيك، خليفتك في أمتك، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك، وصهرك، ذي النورين، المخصوص ببرك وتجلّتك، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك، بدر سمائك، ووالد أهلك. والسلام الكريم عليك، وعليهم، كثيرا بشيرا، ورحمة الله وبركاته"².

ولم ينس كاتب الرسالة في ختام رسالته الإشارة إلى المكان الذي صدرت عنه الرسالة، من باب تعزيز العذر عن الحضور الشخصي للمرسل، وشرف المنطقة التي بلغ إليها المدّ الحمدي في الغرب الإسلامي:

".. وكتب من حضرة جزيرة الأندلس (غرناطة)، صانها الله ووقاها، ودفع عنها - ببركتك - كيد عداها.."³.

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب، 1: 62.

² - المصدر نفسه، 1: 62.

³ - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب، 1: 62.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

2-1-2 - رسالة الغني بالله

لابن الخطيب رسالة ثانية كتبها على لسان السلطان (الغني بالله)، يبشره فيها بفتح كثير من البلدان التي أخذها الإسبان عنوة، وكيف نطقت المآذن ثانية فيها بالآذان والتكبير، وكيف أعيدت إلى أسر المسلمين حرياتهم، وهي رسالة شفاعة وضراعة وتوسل من جهة، كما هي رسالة جهاد من جهة أخرى؛ تصور بسالة المسلمين في جهادهم، بعدما هب مسلمو المغرب إلى دعمهم بالنفس والمال، مؤزرين إخوانهم، محققين الكثير من الانتصارات.

ويقترَب مضمون الرسالة الثانية من مضمون الرسالة الأولى، التي كتبها (ابن الخطيب) على لسان السلطان الغرناطي، أبي الحجاج يوسف، والد (الغني بالله).

فلقد بدأها بقصيدة شعرية على نمطها، وكالعادة، افتتح بالمقدمة الطللية الغزلية - على طريقة المشاركة - عبر فيها عن اشتياقه وحنينه لرسول الله ((صلى الله عليه وسلم))، مطلعها¹:

دعاك بأقصى المغربين غريب . وأنت على بعد المزار قريب .

في أبياتها، راح ابن الخطيب، بالنيابة عن السلطان، يعدّد صفات النبي الكريم، وخصاله، بأنّه صاحب المعجزات، ويخاطب ركب الحجاج المغاربة، طالبا منهم أن ينقلوا سلامه وحبّه إلى قبر رسول الله، وأسفه وحسرتّه أنّه لم يكن ضمن هذا الركب، راجيا أن يكون شعره قد بلغ مدى اشتياقه وحنينه، ثم ينتقل إلى طلب الشفاعة والغوث من الرسول الله، ويختم القصيدة بالصلاة والسلام على رسول الله.

بعدها، ينتقل كاتب الرسالة مستعرضا مضمون الرسالة الثرية، وهي رسالة طويلة جدا، ضمّنها أسمى مشاعر الصدق والحب، معبرا فيها عن عواطفه ومشاعره لرسول الله، معدّدا من خلالها معجزات النبي، وأوصافه، منتقلا - بعدها - إلى التعبير عن حسرتّه، وأسفه أنّه لم يزر أرض النبوة، طالبا من الحجيج نقل سلامه وصلاته له، مثلما فعل مع رسالة أبيه، لينختم بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

¹ - المصدر نفسه، 1: 62.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

2-1-2-1- بنية الرسالة:

يفتح صاحب الرسالة مقالته بالتوجه إلى المرسل إليه، قائلاً:

"إلى حجة الله المؤيد ببراهين أنواره، وفائدة الكون ونكتة أدواره، وصفوة نوع البشر ومنتهى أطواره..

إلى المجتبي، وموجود الوجود لم يغن بمطلق الجود عديمه، والمصطفى من ذرية آدم قبل أن يكسو العظام أديمه، المختوم في القدم، وظلمات العدم، عند صدق القدم، تفضيله، وتقديمه.. إلى وديعة النور المنتقل في الجباه الكريمة والغرر، ودرة الأنبياء التي لها الفضل على الدرر، وغمام الرحمة الهامية الدرر..

إلى مختار الله المخصوص باجتهائه، وحببيه الذي له المزية على أحبائه، من ذرية أنبياء الله آبائه..

إلى الذي شرح صدره وغسله، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله، وأتم عليه إنعامه الذي أجزله، وأنزل عليه من النور والهدى ما أنزله.. إلى بشرى المسيح والذبيح، وملهم التجر الرياح، المنصور بالرعب والريح، المخصوص بالنسب الصريح..

إلى الذي جعله في الخول غماما، وللأنبياء إماما، وشق صدره لتلقي روح أمره غلاما، وأعلم به التوراة والإنجيل إعلاما، وعلم المؤمنين صلاة عليه وسلاما..

إلى الشفيح الذي لا ترد في العصاة شفاعته، والوجيه الذي قرنت بطاعة الله طاعته، والرؤوف الرحيم الذي خلصت إلى الله في أهل الجرائم ضراعتة، صاحب الآيات التي لا يسع ردها، والمعجزات التي أربى على الألف عدها، فمن قمر يشق، وجذع يحن له وحق، وبنان يتفجر بالماء، فيقوم بري الظماء، وطعام يشبع الجمع الكثير يسيره، وغمام يظل به مقامه ومسيره، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض، وأول من تشق عنه الأرض، ووسيلة الله التي ما أقرض القرض، ولا عرف النفل والقرض.."¹

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب، 1: 66

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

إلى أن يصل إلى ذكر المرسل إليه صراحة:

".. محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، المحمود الخلال، من ذي الجلال، الشاهدة بصدقه صحف الأنبياء وكتب الإرسال، وآياته التي أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال، صلى الله عليه ما در شارق، وأومض بارق، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق، صلاة تتأرجع عن شذا الدهر، وتنبج عن سنا الكواكب الزهر، وتتردد بين السر والجهر، وتستغرق ساعات النهار وأيام الشهر، وتدوم بدوام الدهر.."¹.

وحفاظا على ترتيب طرفي التراسل (المرسل ومرسل إليه)، يؤخر الكاتب المرسل (السلطان الغرناطي)، على المرسل إليه (نبي الله ورسوله)، تشريفا له، مستعرضا صفات الموصوف قبل الإفصاح عن اسمه:

".. من عبد هداه، ومستقري مواقع نداءه، ومزاحم أنصاره في منتداه، وبعض سهامه المفوقة إلى نحور عداه، مؤمل العتق من النار بشفاعته، ومحرز طاعة الجبار بطاعته، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله وإضاعته، متخذ الصلاة عليه وسائل نجاة، وذخائر في الشدائد مرتجاة، ومتاجر بضائعها غير مزجاة، الذي ملأ بحبه جوانح صدره، وجعل فكره هالة لبدره، وأوجب قدره على قدر العبد لا على قدره.."².

ثم يورد اسم المرسل:

".. محمد بن يوسف، بن نصر، الأنصاري، الخزرجي، نسيب سعد بن عبادة* من أصحابه، وبوارق سحابه، وسيوف نصرته، وأقطاب دار هجرته، ظلله الله يوم الفزع الأكبر من رضاك عنه بظلال الأمان، كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان، وجعله من أهل السياحة في فضاء حبك والهيمان.."³.

¹ - المصدر نفسه، 1: 67.

² - المصدر نفسه، 1: 67.

* عرف به سابقا.

³ - لسان الدين بن الخطيب: رجحانة الكتاب، 1: 67.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ويسير ابن الخطيب على طريقة الرسالة الأولى، فيذكر حالة المرسل النفسية والروحية في هذا المقام، أثناء كتابة الرسالة، وهو يرى ركب الحجيج متوجهين إلى الحجاز:

".. كتبه إليك - يا رسول الله - واليراع يقتضي مقام الهيبة صفرة لونه، والمداد يكاد أن يحول سواد جونه، وورقة الكتاب يخفق فؤادها حرصا على حفظ اسمك الكريم وصونه، والدمع يقطر، فتتقط به الحروف وتفصل الأسطر، وتوهم المثول بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر، عن قلب بالبعد عنك قريح، وجفن بالبكاء جريح، كلما هب من أرضك نسيم ريح، وانكسار ليس له إلا جبرك، واغتراب لا يونس فيه إلا قربك، وإن لم يقض فقبرك، وكيف لا يسلم في مثلها الأسي، ويوحش الصباح المسا، ويرجف جبل الصبر بعد ما رسي، لولا ولعل وما وعسى، فقد سارت الركاب إليك ولم يقض مسير، وحومت الأسراب عليك والجناح كسير، ووعدت الأملاك فأخلفت، وحلفت العزائم فلم تف بما حلفت، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأمثل إلا على التمثيل، ولا من المعالم الملتزمة التنوير إلا على التصوير، مهبط وحي الله ومنتزل أسمائه، ومرتدد ملائكة سمائه، ومرافق أوليائه وملاحد خيرة أصحاب أنبيائه، رزقني الله الرضى بقضائه والصبر على جاحم البعد ورمضائه.."¹

وفي معرض وصف حالته يشير المرسل إلى المكان الذي انطلقت منه قافلة الحجيج، إلى غرناطة، عاصمة الملك، وعاصمة الجيوش الإسلامية المدافعة عن الإسلام، وعاصمة الجهاد:

".. من حمراء غرناطة - حرسها الله - دار ملك الإسلام بالأندلس - قاصية سبلك، ومسلحة رجلك - يا رسول الله - وخيلك، وأناى مطارح دعوتك، ومساحب ذيلك..
حيث مصاف الجهاد في سبيل الله وسبيلك، قد ظللها القتام، وشهبان الأسنة أطلعت منه الإعتماد، وأسواق بيع النفوس من الله قد تعدد لها الأيامي والأيتام..

¹ - المصدر نفسه، 1: 67

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

حيث الجراح قد تحلت بعسجد نجيعها النحور، والشهداء تحف بها الحور، والأمم الغربية قد قطعها عن المدد البحور..

حيث المباسم المفترقة، تجلوها المصارع البرة، فتجيبها بالعدا ثغور الأزاهر، وتندبها صوادح الأدواح برنات تلك المزامر، وتحلى السحاب أشلاؤها المعطلة من طلها بالجواهر..
حيث الإسلام، من عدوه المكاييد بمتزلة قطرة من عارض غمام، وحصاة من نثير أو سم، وقد سدت الطريق، وأسلم للفراق الغريق، وأغص الريق، ويئس من الساحل الغريق إلا أن الإسلام بهذه الجهة المستمسكة بحبل الله وحبلك، المهتدية بأدلة سبلك، سالم - والحمد لله - من الانصداع، محروس بفضل الله من الابتداءع..¹

ولقد جعل الكاتب من الكلام عن عاصمة الملك (غرناطة)، ذريعة إلى استعراض سلسلة المعارك التي خاضها السلطان الغرناطي (الغني بالله)، من أجل استرجاع ما انتزعه الإسبان منه، مؤيدين بحلفائهم الأوربيين المسيحيين، فيقول:

".. وهذه الأيام - يا رسول الله - أقام الله أوده برا بوجهك الوجيه، ورعيا، وإنجازا بوعدك وسعيا، وهو الذي لا يخلف وعدا ولا يخيب سعيا، وفتح لنا فتوحات أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب، وبشرتنا منه - تعالى - بتعمد التقصير ورفيع التثريب، ونصرنا - وله المنة - على عبدة الصليب، وجعل لألفنا الرديني ولامنا السردي حكم التغليب.."²

وبعد الإشارة إلى غرناطة المجاهدة، يتحول الكاتب إلى مؤرخ لهذه المعارك، وواصف لتفاصيلها، فيتكلم عن فتح مدينة (برغة)، وحصن (آشر)، ومدينة (أطريه)، وقلعة (جيان)، ومدينة (أبده)، ومدينة (قرطبة)..

ولعل أجمل وصف قدمه الكاتب على لسان السلطان الغرناطي وصفه لحصار حصن (آشر)، حيث يقول:

¹ - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب، 1: 68.

² - لسان الدين بن الخطيب: ريجانة الكتاب، 1: 69.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

".. فأحاطوا به إحاطة القلادة بالجيد، وأذلوا عزته بعزة ذي العرش المجيد، وحفت به الرايات يسمها وسمك، ويلوح في صفحاتها اسم الله واسمك، فلا ترى إلا نفوسا تتزاحم على موارد الشهادات أسرابها، وليوثا يصدق طعانها في الله وضرايبها، وأرسل الله عليها رجزا إسرائيليا من جراد السهام، تشذ آياته عن الأفهام... ونصبت المعارج والمراقبي... ثم استخلصت القصبه، فعلت أعلامك في أبراجها المشيدة، وظفر ناشد دينك منها بالنشيدة، وشكر الله في قصدها مساعي النصائح الرشيدة، وعمل ما يرضيك - يا رسول الله - في سد ثلمها وصون مستلمها، ومداواة ألمها، حرصا على الاقتداء في مثلها بأعمالك، والاهتداء بمشكاة كمالك.."¹

لقد كان الكلام عن معارك الإسلام في الأندلس، في هذه الرسالة أشبه بالتقرير العسكري الذي يدلي به القائد أمام رئيسه، فيسعد بهذه الفتوح، وهذه الانتصارات، وقد أحب لكاتب على لسان السلطان أن يتوسل بها عند رسول الله لعله ينال بها القبول، فيكتب له بها أجر حجة إلى مكة، أو زيارة إلى طيبة. يقول الكاتب:

".. ولهذا العهد - يا رسول الله - صلى الله عليك، وبلغ وسيلتي إليك، بلغ عز هذا القطر المرتدي بجاهك الذي لا يذل من ادركه، ولا يضل من اهتدى بالسبيل الذي شرعه، إلى أن لاطفنا ملك الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها، ورفع التماثيل بيوت الله ونصبها، فأنجاب عنها بنورك الحلك، ودار بإدالتها إلى دعوتك الفلك، وعاد إلى مكاتبها القرآن الذي نزل به على قلبك الملك، فوجبت مطالعة مقرك النبوي بأحوال هذه الأمة المكفولة في حجرك، المفضلة بإدارة تجرك، المهتدية بأنوار فجرك، وهل هو إلا ثمرات سعيك، ونتائج رعيك، وبركة حبك، ورضاك الكفيل برضا ربك.."²

¹ - المصدر نفسه، 1: 72.

² - لسان الدين بن الخطيب: رجحانة الكتاب، 1: 78.

الفصل الثاني الخصائص الفنية:

ثم يجتم الكاتب رسالته - التي كانت لسان حاله، وترجمان أشواقه، بالصلاة على النبي الكريم ((صلى الله عليه وسلم)):

".. وصلاة الله وسلامه تحيط بفنائك رحال طيبها، وتبذر في ناديك شقائق خطيبها ما أذكر الصباح الطلق هداك، والغمام السكيب نداك، وما حن مشتاق للثم ضريحك، وبللت نسمات الأسحار مما استرقت من ريحك.."¹.

¹ - المصدر نفسه، 1: 80.

خاتمة

يعرف المديح النبوي بأنه ذلك الشعر الذي يتناول شخص الرسول ((صلى الله عليه وسلم))، وشخصيته حيا وميتا، وذلك بتعداد صفاته الخلقية والخلقية، وإظهار الشوق لرؤيته، وزيارة قبره، والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية، والإشادة بسيرته، وغزواته، والحديث عن مواقفه وشمائله، تقديرا وتعظيما.

وقد ظلَّ شعر المدح والثناء الذي قيل في الرسول (صلى الله عليه وسلم) متداولاً في أدب المشاركة، مع شعراء الشيعة إلى إن وصل القرن السادس للهجرة، حيث يغدو المديح النبوي غرضاً مستقلاً بنفسه، له شعراؤها، وله أطره الفكرية والفنية، خاصة مع ازدهار شعر الزهد، وظهور الحركات الدينية، والطرق الصوفية.

وقد امتد هذا الاحتفاء بقصائد المولد النبوي إلى البلاد الأندلسية، حيث كان يحتفل بهذه الذكرى احتفاءً كبيراً ترصد لها الجوائز والهبات ويسع على الناس تشريفاً لهذه المناسبة. وعبر هذا الامتداد الزمني (الأندلسي / المغربي)، ازدهر المديح النبوي، وكان للوضع السياسي الذي عاشه الغرب الإسلامي، خاصة مع حملات التوسع المسيحي في الجزيرة الأندلسية، أثره البالغ في توقُّد الشعور الديني، وانعكاسه على الحياة الفكرية والأدبية، ونماء الكتابة، والتأليف في ذلك، سواء تعلق الأمر بالأدب الحماسي ذي النبرة الدينية، أو ما ارتبط بأنواع الشعر الديني، كشعر الزهد، وشعر التصوّف، والشعر النبوي.

وجدت المدائح النبوية طريقه في البيئات الصوفية؛ مع حلول القرن السابع الهجري، مع الشاعر "البوصيري"، الذي كانت مدائحه نموذجاً احتذاه المشاركة والمغاربة، فظهر شعر البديعيات، وشعر المولديات، وشعر الحجازيات، حيث ازدهرت ألوانه مع الأندلسيين أواخر الوجود الإسلامي في الأندلس (عصر بني الأحمر)، كما ازدهر مع المغاربة زمن الموحدين، والمرينيين، والزيانيين. وكان لسان الدين بن الخطيب - محور دراستنا - أحد فرسان هذا الأدب، خاصة ما جاء منه نثراً، والذي كان جزءاً من اهتمامات بحثنا.

لقد حاول البحث استعراض ما ارتبط بالمديح النبوي، ورصدها في مؤلفات لسان الدين بن الخطيب الشعرية والنثرية، والنظر إلى خصائصها المضمونية، كما حاول البحث تناول الرسائل الدينية المرتبطة بالسيرة النبوية، في أدب الأندلسيين، وكان اهتمامنا برسالي ابن الخطيب

خاتمة

الحجازيتين، وقد كتبهما على لسان السلطان الغرناطي: أبي الحجاج يوسف، وابنه محمد (الغني بالله)، محاولين الوقوف على بعض أبعادها التاريخية، والسياسية، والدينية، والنفسية. وقد أدركنا، عندما كنا بصدد تناول هذا النوع من الأدب الديني (المدائح النبوية الثرية)، أنه مبحث يحتاج إلى دراسة معمقة خاصة في جانبه الفني، وهو أفق بحث مفتوح للدارسين.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم (رواية ورش)

المصادر المباشرة: (مؤلفات لسان الدين بن الخطيب):

1. أعمال الأعلام، تح: سيد كسراوي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2003.
2. الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2003.
3. الإحاطة في أخبار غرناطة، مكتبة الخانجي، ط.2، 1973.
4. أعمال الأعلام، تح: سيد كسراوي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2003.
5. ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، تح: محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1، 1973.
6. ديوان لسان الدين بن الخطيب (الصيب والجهام والماضي والكهام)، تح: محمد عبد الفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط.1، 1989.
7. روضة التعريف بالحب الشريف، تح: محمد كناني دار الثقافة، بيروت، ط.1، 1970.
8. ريحانة الكتاب ونبجعة المنتاب، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.1، 1981.
9. الكتيبة الكاملة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط.1، 1983.
10. معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تح: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة، القاهرة، ط.1، 2002.
11. نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تع: أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء - المغرب (د. ت).

قائمة المصادر والمراجع

المصادر غير المباشرة

12. أعشى (ميمون بن قيس الأعشى): ديوان الأعشى، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980.
13. برزنجي (جعفر بن حسن البرزنجي): مولد البرزنجي، تح: بسام محمد بارود، ط.1، 2008.
14. ترميذي (محمد بن سورة الترميذي): الشمائل المحمدية، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط.3، 1988.
15. ثابت (حسان بن ثابت): ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الكتب العلمية، ط.2، بيروت، 1994.
16. خلدون (عبد الرحمن بن خلدون): المقدمة، دار ابن الجوزي للطبع والنشر، القاهرة، ط.1، 2009.
17. زهير (كعب بن زهير): ديوان كعب بن زهير، تح علي فاغور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.
18. عتاهية: أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت (1986).
19. عروسي (بركات محمد العروسي القسنطيني): وسيلة المتوسلين بفضل الصلاة على سيد المرسلين، مطبعة العرب، تونس (د.ت)
20. عربي (محي الدين بن عربي): ديوان الشيخ الأكبر، مراجعة: محمد قحّة، دار الشرق العربي، بيروت (د.ت).
21. عربي (محي الدين بن عربي): الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت (د.ت).
22. فرزدق (همام بن غالب الفرزدق): ديوان الفرزدق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1987.
23. مقري (أحمد المقري التلمساني): أزهار الرياض في أخبار عياض، مطبعة فضالة، القاهرة، ط.1، 1939.

قائمة المصادر والمراجع

24. مقري (أحمد المقري التلمساني): أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: سعيد أحمد أعراب، محمد بن تاويت، صندوق أحياء التراث الإسلامي، اللجنة المشتركة - المغرب/الإمارات (1978).
 25. مقري (أحمد المقري التلمساني): أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: مصطفى سقا الأياري/ عبد الحفيظ الشليبي، مطبعة فضالة، القاهرة، ط.1، 1980.
 26. مقري (أحمد المقري التلمساني): نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
 27. هوارى (محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الهوارى): الحلة السيرا في مدح خير الورى، تح: علي أبو زيد، عالم الكتب، بيروت، ط.2، 1985.
- المراجع:**
28. إبراهيم (عبد الرحمن خليل إبراهيم): دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول (ص)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.1، 1971.
 29. بهجت (منجد مصطفى بهجت): الأدب الأندلسي (من الفتح حتى سقوط غرناطة)، دار اليقين، عمان - الأردن، ط.2، 2006.
 30. تاويت (محمد تاويت): الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط.1، 1982.
 31. جبران (محمد مسعود جبران): فنون النثر الأدبي (في آثار لسان الدين بن الخطيب)، دار مدار الإسلامية، بيروت، ط.1، 2004.
 32. جراري (عباس جراري): الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ط.2، 1982.
 33. جمال (محسن جمال الدين): احتفالات الموالد النبوية في الأشعار الأندلسية والمغربية والمهجرية، دار البصري، بغداد، ط.1، 1967.
 34. حريري (محمد عيسى الحريري): تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العهد المريني، دار القلم، الكويت، ط.2، 1987.

قائمة المصادر والمراجع

35. حمداوي (جميل حمداوي): من المديح النبوي إلى الشعر الصوفي، المغرب، ط.1، 2016.
36. حمادي (عبد الله حمادي): دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث، الجزائر، ط.1، 1986.
37. خطيب (نبيل خالد الخطيب): لسان الدين ابن الخطيب (نثره، شعره، ثقافته)، دار النهضة العربية، بيروت، ط.1، 2014.
38. داية (محمد رضوان الداية): تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، دار النشر المؤسسة الرسالة، بيروت، ط.2، 1993.
39. دهان (سامي الدهان): المديح، دار المعارف، القاهرة، ط.2، 1968.
40. زيد (علي أبو زيد): البديعات في الأدب العربي، عالم الكتب، القاهرة، 1983.
41. زلاقي (محمد زلاقي)، بناء القصيدة المولودية في المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين، الجزائر، 2013.
42. ضيف (بشير ضيف بن أبي بكر بن البشير بن عمر الجزائري): كتاب فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، دار ثالة للنشر، الجزائر، ط الثانية، 2007م، ص: 222.
43. ضيف (شوقي ضيف): تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس)، دار المعارف، القاهرة (1989).
44. عتيق (عبد العزيز عتيق): الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ط.1، 1995.
45. عيسى (عبد العزيز محمد عيسى): الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1945.
46. فاخوري (حنا الفاخوري): الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار الجيل، بيروت، ط.2، 1991.
47. فروخ (عمر فروخ): تاريخ الأدب العربي (الأدب في المغرب والأندلس)، دار العلم للملايين، بيروت، ط.1، 1983.

قائمة المصادر والمراجع

48. فيلاي (عبد العزيز فيلاي): تلمسان في العهد الزياني، دار موفم للنشر والتوزيع، الجزائر (2002)، 2: عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث، الجزائر، ط.1، 1986.
49. قيسي (فايز القيسي): الوجد والشوق الديني إلى زيارة الأماكن المقدسة في نثر لسان الدين بن الخطيب (قراءة في المكونات والأبعاد)، عن: لسان الدين بن الخطيب (مجدد فكر التسامح وحوار الثقافات) محمد مزين/ العياشي السنوسي، أعمال الندوة الدولية (الأيسيسكو)، ومؤسسة ابن الخطيب، 15-16 نوفمبر 2013، المؤسسة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (أيسيسكو)، الرباط، 2017.
50. كتابي (نور الهدى الكتابي): الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2008.
51. كنون (عبد الله كنون): ذكريات مشاهير رجال المغرب (في العلم والأدب والسياسة)، دار ابن الحزم، دار البيضاء، المغرب، ط.1، 2010.
52. مبارك (زكي مبارك): المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت (1935).
53. مرزوق (أبو بكر مرزوق): مولد الشيخ محمد بن عزوز، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان- الجزائر، ديسمبر 2018.
54. مكي (محمود علي مكي): المدائح النبوية، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، الجيزة - مصر، ط.1، 1991، ص: 123.
55. هاشمي (أحمد الهاشمي): جواهر الأدب، دار مكتبة المعارف، بيروت (2004).

المجلات:

56. حمداوي (جميل حمداوي): شعر المديح النبوي في الأدب العربي، مجلة ديوان العرب، الكويت، ع.94، 2001.
57. عباس (محمد عباس): نشأة الشعر الديني عند العرب، مجلة حوليات التراث، ع.1، جامعة مستغانم، الجزائر، 2004.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
	بسملة
	اهداء
	كلمة شكر
أ-د	مقدمة
مدخل: الأدب الديني في التراث العربي	
6	1-تمهيد:
7	2-الشعر الديني
8	2-1-الشعر الزهدي
8	2-2-الشعر الصوفي
9	2-3-المديح الديني:
الفصل الأول: الشعر الديني في الأندلس والمغرب	
16	المبحث الأول: الشعر الديني في عصر ابن الخطيب
16	1-تمهيد
17	2-الشعر الديني في عهد (بني أحمر) في بلاد الأندلس
18	2-1-نماذج من الأدب الديني الأندلسي
22	3- الشعر الديني في عهد (بني مرين) في بلاد المغرب
23	3-1-نماذج من الأدب الديني المغربي
المبحث الثاني: الشعر الديني عند ابن الخطيب	
26	1-ابن الخطيب (حياته وآثاره)
26	1-1- حياته
31	1-2- آثاره
33	2-مدائح ابن الخطيب الدينية
34	2-1- مدائحه الأندلسية
37	2-2-مدائحه المغربية
الفصل الثاني: المديح النبوي خصائصه عند ابن الخطيب	
41	المبحث الأول: المدائح الشعرية

41	1-دواعي الشعر الديني عند ابن الخطيب
44	2-القصائد الحجية
44	2-1-قصائد حجية سلطانية
47	2-2-قصائد حجية ذاتية
48	3- القصائد المولدية
48	3-1-مولديات سلطانية
52	3-2-مولديات ذاتية
	المبحث الثاني: المدائح النثرية
55	1-المدائح النبوية النثرية في التراث العربي
55	1-1-فكرة المدائح النبوية النثرية
56	1-1-1- نماذج من المدائح النثرية الأولى:
57	1-2-1-أنماط المدائح النبوية النثرية في بلاد الأندلس والمغرب
58	1-2-1- رسائل الحجاز:
59	1-2-1-1- نماذج من رسائل الحجاز
61	1-2-2-1- قصص المولد:
62	1-2-2-1- نموذج من قصص المولد:
63	2- المدائح النبوية النثرية عند ابن الخطيب
64	2-1-رسالتا ابن الخطيب النثريتان:
64	2-1-1-رسالة أبي الحجاج يوسف بن نصر:
65	2-1-1-1-بنية مضمون الرسالة:
71	2-1-2-رسالة الغني بالله
72	2-1-2-1-بنية الرسالة:
79	خاتمة
	قائمة المصادر والمراجع
	ملخص

الملخص

يحاول البحث استعراض ما ارتبط بأدب المديح النبوي، ومتابعته في مؤلفات لسان الدين بن الخطيب الشعرية والنثرية، مع استخلاص خصائص المضمون فيه. كما يحاول تناول الرسائل المرتبطة بالمدائح النبوية في أدب الأندلسيين، من خلال تحليل رسالتين موضوعهما الشوق إلى الحجاز وقبر النبي (صلى الله عليه وسلم)، كتبهما ابن الخطيب على لسان السلطان الغرناطي: أبي الحجاج يوسف، وابنه محمد الخامس (الغني بالله)، ومحاولة الوقوف على بعض أبعادها التاريخية، والسياسية، والدينية، والنفسية. **الكلمات المفتاحية:** المديح النبوي، لسان الدين ابن الخطيب، الأندلس

Résumé :

La recherche tente de passer en revue ce qui a été associé à la littérature de louange du Prophète et de la suivre dans les écrits de la poésie et de la prose de San al-Din ibn al-Khatib, tout en en extrayant les caractéristiques du contenu.

Il essaie également de traiter les messages liés aux enseignements prophétiques de la littérature andalouse, en analysant deux messages sur l'attente du Hijaz et du tombeau du Prophète (paix et bénédictions d'Allah soient sur lui), rédigés par Ibn al-Khatib sous l'autorité du Sultan al-Garnati: Abu Hajjaj Yusuf, Sur certaines de ses dimensions historiques, politiques, religieuses

Mots-clés: louanges prophétiques, Sananuddin Ibn al-Khatib, Andalousie et psychologiques.

Summary :

The research attempts to review what has been associated with the literature of praise of the Prophet, and follow it in the writings of San al-Din ibn al-Khatib poetic and prose, while extracting the characteristics of content in it.

He also tries to deal with the messages related to the prophetic teachings in the Andalusian literature, by analyzing two messages about longing to the Hijaz and the tomb of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him), written by Ibn al-Khatib on the authority of the Sultan al-Garnati: Abu Hajjaj Yusuf, On some of its historical, political, religious and psychological dimensions.

Keywords: Prophetic praise, Sananuddin Ibn al-Khatib, Andalusia